

SHU'UN AL-TAYYIBAH FAWZ AL-MU'ALIF

ط. ١٩٤٥ - ١٩٥٧ - ٢٠١٤

BOBST LIBRARY



3 1142 01706 5841



Elmer Holmes  
Bobst Library

New York  
University





Badawī al-Mulaththam  
"

(Shā'ir al-ṭayyārāh  
Fawzī al-Ma'lūf)

البدوي المثلثم

# شاعر الطيارة

فوزي المعلوف



مركز الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

PJ  
7846  
A537  
Z53  
1948  
c.1

NYU ROBST-PRESERVATION  
P-9162 NY 2193

01706 5841



تقدمة المودة والولادة من أخي الحبيب  
الاستاذ فارس ديفي سماه الله

ليقوب العودات  
(عمان - شرق مورون) (البدوي الملم)



شاعر الطيارة المرحوم فوزي الملوفا

بكيتُ على سربِ القطا إذ مررتُ بي      فقلتُ ، ومثلي بالبكاء جديرُ !  
أسربَ القطا هل من يعيرُ (جناحهُ) ؟      لعلي إلى من قد هويتُ (أطيرُ) !

الشاعر العربي

« ... إن فوزي المملوف كأَنْبياء التوراة ،  
علّق ربابته على غصن صفصافة لتعزف  
على هوى الريح ، ناطقة بما في لغة الطبيعة  
من نبرات خفيّة تهمس بها الألوهة »

فرنسيسكو فيرديناند  
أمير شعراء الإسبان

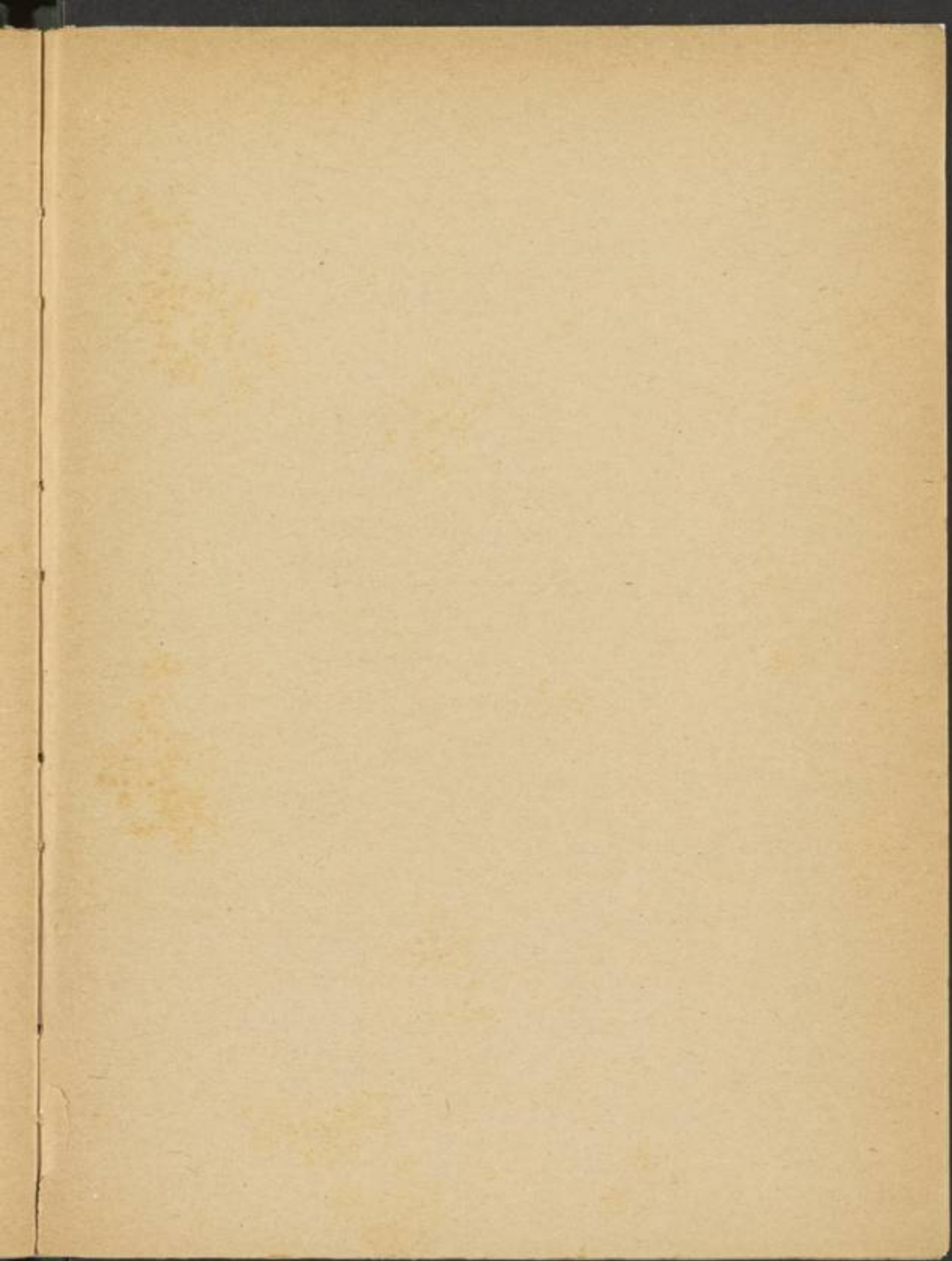


## الإهداء

إلى الذي نهكته داهيات الخطوب  
والد « فوزي » الحزين  
العلامة عيسى إسكندر المعلوف  
وإلى التي ناشتها عوادي الأيام  
فاتشحت بالسواد حدادا  
والدة « فوزي » الفجيع  
السيدة عفيفة المعلوف  
وهي تردّد على مسمع « البردوني »  
الباكي في خريه ، الشاكي في هديره :  
يقولون : صبراً ، لا سبيل إلى الصبر  
سأبكي ... وأبكي ... ما تطاول من عمري !

البردي الملتئم

القدس — فلسطين



## رشحات قلم

كان أول ما استوقف نظري واسترعى التفاتني إلى الشاعر الساحر فوزي المعلوف عدد من المقتطف خرج للناس عام ١٩٢٩ وفي صدره قصيدة للشاعر المعلوف ، بعنوان « غرناطة ... ! » جاءت نشيداً حلوا النغمات . ومنذ ذلك اليوم بتُ أوسم في فوزي شاعراً تفخر به العرب ، ونابغة يتبه باسمه الجيل الجديد ، ويمجر أذيال الزهو وأردان الفخار !

ولبت توسمي هذا ينسع في رقعه ومداه ، حتى أتيتحت لي زيارة والده الشيخ الجليل عيسى إسكندر المعلوف في زحلة ، وهناك جلوت نواحي كنت أستهدف جلاءها . وما إن أطلّ يوم رحيلي حتى بادرنى العلامة المعلوف بنسخة من ملحمة « الطيارة » أو « على بساط الريح » أنيقة الطبع كانت لي — على حدّ تعبيره — زوادة طريق .

وفي دارة الأهل عكفتُ على مدارس الأثر المعلوف الخالد ، فتبدّت لي نواحي أنارت

في النفس عوامل الإعجاب بشاعر حمل قيثاره العزاء في ليل العرب والإسلام ، ثم  
ما لبث أن جفا هذا العالم الجاني ، وهو آسأ يزل غض الإهاب ، موفور الشباب !  
ولقد كنت قطعت على نفسي العهد في تصنيف رسالة أتناول فيها شعر فوزي  
وفلسفته ، فلبثت الفكرة آساورني ، والعهد المسؤول يمعن في دقا ووخزا حتى كانت  
هذه الرسالة . . .

البروي الملمم

القدس — فلسطين



## فوزي المعلوف

١٨٩٩ — ١٩٣٠ م

نشأته وخلالها

أستطيبُ الحديثُ وأشبههُ ، كلما سنحت الظروف وواتني المناسبات ، عن شاعر نابغ مرَّ بهذا الوجود مرّاً سريعاً وانطلقَ كالنسمة الغادية العطرة ، أو نسمة الغناء العذبة ، أو لحن الموسيقى الجميل ، ومضى إلى جنة الخلد هازجاً بالشعر ، لغة السماء والخلود ، وقد أهتمته عبقرية\* بأنفاس علوية عبقة ، متضوعة التناغم ، متساوقة التقاسيم ، يؤلف كل نغم « جازاً » و « رباباً » فغنى فوزي على قيثارة واحدة مترعة الأوتار ، وكان لمختلف أغانيه تلك النبرات الحية التي لها صداها العميق البعيد في القلوب .

لكن الضاد — أم اللغات — فقدت فيه أديباً فذاً واسع الخيال ، مديد الأفق ، وشاعراً مرهف الحس يصح أن نعدّه من خير مَنْ يتمثل فيهم لقاح الثقافتين الشرقية والغربية في أدبنا المعاصر .

\* يزعم العرب أن (عبرا) قرية تسكنها الجن وإليها ينسب كل جليل فائق .



وها قد مضى على وفاة هذا الشاعر المجدد ثمانية عشر عاماً ولا يزال الأدباء في  
 المواطن والمهاجر يتناقلون روايته ويستبقون إلى مدارسة آثاره ونشرها ، وفي كل  
 يوم يحسر لنا الباحثون اللثام عن رائعة جديدة تلوها روايات . . . « حتى درسوا<sup>(١)</sup>  
 شعره من نواحيه كافة ، وحدثونا عن ابتكاراته وأسلوبه ومعانيه الموقفة وألفاظه  
 السحرية ، وقرروا أن فوزي منحة علوية خصَّ الله بها الشعر العربي ، وأن  
 أسلوبه حمل الشعر العصري إلى اتجاه جديد » وطبعه بطابع السمو والتجديد ،  
 وأجمعت آراؤهم على احترامه والإعجاب بنبوغه . ولم يتناولوه قلم بنقد لاذع ، إذ لم يقف  
 باحث في آثاره على ما يؤاخذ عليه الشاعر ، حتى إن النقادة المجدد الدكتور طه  
 حسين بك سطر فصلاً مائماً شديداً عن شعر فوزي وروائعه ، يتمنى الكثيرون  
 من شعراء اليوم أن يموتوا ليكتب عنهم عميد الأدب العربي ما كتب عن فوزي .  
 وإليك نبذة<sup>(٢)</sup> مما كتبه المعاصر :

« مرَّ فوزي المعلوم بالأرض مرّاً سريعاً ، ولكنه ترك في النفوس صدى يتردد  
 فيها حلواً لاذعاً محرقاً معاً ؛ ولا أعرف أنني تأثرت بشاعر كما تأثرت بهذا الشاعر  
 الشاب حين قرأت قصيدته « على بساط الريح » فاهتزت لها نفسي اهتزازاً ، وانشقت  
 لها قلبي انشقاقاً ؛ ثم قرأتها اليوم فوجدت لقراءتها مثل ما وجدت أمس ، أو أكثر

(١) الأستاذ أنيس نصر ( حلب ) في عدد ( الضاد ) الملتاز ١٩٣٥

(٢) جريدة ( الوادي ) المصرية : العدد ١٠٣٦ تاريخ ١٨ تموز ( يوليو ) ١٩٣٣

مما وجدت أمس ، وما أرى إلا أني سأقرأها وأقرأها وسأجد في قراءتها في هذه  
المرّة اللذة التي يحبها الأديب حين يقرأ الشعر الجيد الرائع الجميل ، بلى أذكّر أني  
قرأت هذا الأثر مرة حين قرأت منذ أعوام مقطوعات من الشعر الفرنسي نشرتها  
«الأستراسيون» لشاب أميركي أحب فرنسا وتطوع للدفاع عنها أثناء الحرب ، وتغنى  
في شعره الفرنسي الحلو بجمال تلك الأرض التي كان يدافع عنها والتي تنبت خير  
ما ينبت في فرنسا من السكرم وتؤتي خير ما تؤتيه كروم فرنسا من الخمر . وكان  
ذلك الشاعر الأميركي الشاب يحس أنه سيموت ، وكان يقدر أن جسمه سيمتزج  
بثرى ذلك الإقليم الفرنسي إقليم «شمانيا» وسيغدو ما سينبته ذلك الثرى من الكرم ،  
وسيشيع في ما ستؤتيه تلك الكروم من الخمر ، وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه  
بالفرنسيين ، وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بما سيلقاه الفرنسيون من النشوة  
والفرح ومن البهجة والسرور حيث يشربون ما سيؤتيه ثرى شمانيا من النبيذ .  
وكنت أقرأ هذا الغناء الحزين اللاذع فأجد لنغمته لذة حزينّة لاذعة كهذه  
اللذة التي وجدتها أمس ووجدتها اليوم حين قرأت قصيدة ذلك الشاعر اللبناني  
الشاب . ولست أعرف من أمره شيئاً إلا أني سمعت اسمه من أبيه الحزين حين كان  
في مصر أثناء الشتاء ، ثم حدثني عنه المحدثون في هذه الأيام حين أخذت في درس  
الشعر العربي الحديث .

ثم حمل إليّ بعض الأصدقاء قصيدته هذه ، ثم قرأت هذه المقدمة الطويلة



الغريبة التي قدمها بين يديها بعض المستشرقين، ثم عرضت عن هذا كله، وأخذت  
أقرأ القصيدة نفسها، فأبي روح عذب، وأي نفس حلوة، وأي سحر خلّاب، وأي  
فن رائع، وأي موسيقى خليقة بالبقاء!

لقد قال لي الناس: إن لهذا الشاعر مجموعات أخرى من الشعر، وأنا أرجو أن  
أوفق إلى قراءتها أو إلى النظر فيها؛ فإن من الخير بل من الواجب على الذين يعنون  
بالشعر العربي الحديث أن يدرسوا شاعرية هذا الفتي درساً مفصلاً دقيقاً ليروا  
كيف نشأت! وكيف تطورت! وكيف انتهت بصاحبها إلى هذا الشأن العظيم من  
الإجادة والإحسان!

... إلى أن قال في ختام مقاله ما نصّه:

« لقد خسر الشعر العربي الحديث بموت هذا الشاعر الذي لم يكن يتجاوز  
الثلاثين، ولكن الشعر العربي الحديث قد ربح بهذه الحياة القصيرة ربحاً ما أحسبه  
يقدره إلى الآن. ولعلّ مما يعزّي أن يكون بعض الشعراء المصريين، قد عرف  
لهذا الشاعر قدره ووصف قبره هذا الوصف المؤثر الذي تقرأه في ديوان «الملاح التائه»  
والذي يقول فيه الأستاذ علي محمود طه قصيدته «قبر شاعر\*». . . . ومن الحق  
أن نسجل هنا ما سجله الشاعر نفسه من أن هذه القصيدة إنما هي من وحي

\* ديوان ( الملاح التائه ) — س ١١٩ ومظلمها :

رفت عليه مورقات الغصون وحفه العشب بنواره  
ذلك قبر لم تشده المنون بل شاده الشعر بآثاره

فوزي المملوك ، فقد قالها الشاعر بعد أن سمع شيئاً من القصيدة التي تحدثت إليك عنها . اه

\*\*\*

ولد فوزي في زحلة - جارة الوادي - يوم ٢١ أيار ( مايو ) ١٨٩٩ ولم ينسَ تذكر هذا الشهر الذي رأت فيه عيناه النور فكتب قبيل هجرته إلى البرازيل على إحدى مفكراته :

« . . . خلقت في أيار ، في حضن الربيع ، والأرض بما فيها زاهية باسمه ، وأنا فوقها منقبض النفس ، مقطب الجبين ، وما أمر العبوسة في محيط الابتسامات ! لذلك أتمنى أن يطرحني الدهر عند موتي في حضن الخريف بين اصفرار الأوراق وذبول الأزهار وبكاء السماء ، حينذاك قد أوسم عند عتبة الموت غير آسف على فراق حياة قطعتها في خريف صامت ذاو . . . وتركتها في خريف صامت ذاو . . . » .

كان فوزي يخفي تحت كل ابتسامة حرقه حتى إنه قبيل وفاته بأشهر قلائل ، والألماني تفتّر له من كل جانب ، أنشدَ يوم عيد مولده :

بسمَةَ الأهلِ - يومَ نُؤلِدُ حُوَليَ عِبْرَاتِ - على المهود !  
دمعةَ الأهلِ - يومَ نُلجِدُ سِيليَ بَسَمَاتِ - على اللجودِ !

في هذه الصورة العابرة أتناول مولد فوزي ، على أن أجلو هذه الحرقه وتلك

الكآبة عند حديثي عن تشاؤمية شاعر الأمة المشردة ، إذ ستره يمقت يوماً قبل  
فيه : « ولد الفتى للحياة<sup>(١)</sup> ! »

تعلم فوزي القراءة وهو في الثالثة من عمره وأحسنها في الخامسة ، وراسل أباه  
من زحلة وهو في الثامنة ، وقد كتب عن هذا الطور في مذكراته :

« ... كنت كثير الحياء ، بسيط القلب طاهره ، أنجب غالباً رفاقي وأجنح إلى  
العزلة ، غير ميّال إلى الألعاب ، تتكاثف السويدهاء في أفكاري ، فأبهد عن  
المجتمعات ، لا أحب أسرحرتي . وكنت في المدرسة حاضر الذهن قوي الذاكرة ،  
فضولياً في معرفة الصحيح ، وأميل إلى اللغة العربية وإلى الشعر العربي  
على الخصوص » .

يرتقي أول نظم فوزي إلى منتصف عام ١٩١٣ حيث شطّر في السكّية الشرقية  
بزحلة يتين « للأخطل الصغير » أوردها على علامتها « تعلاًّ بجميل ذكرى<sup>(٢)</sup>  
الخدانة والصبأ » :

« زَحْزَحْ لثامك عن جبينك » وبرزت كليت من عرينك  
وانفتت بشهدك في الحشا « وابعتت بسحر من عيونك »  
« واسكب شعاعك في قلوب » تهتدي بسنا جبينك

(١) من مقال للأب العالم جبرائيل أبي سعدي (القدس)

(٢) ذكرى فوزي — ص ٨



وانضد بدرك في رقا ب « لم تدن إلا بديناك » 1

وفي السنة نفسها وقف خطيباً لأول مرة في ندوة جمعية النهضة العلمية التابع  
لمدرسة الكلية الشرقية في زحلة ، ومن قوله في وصف فقير يموت على قارعة  
الطريق فجاء شاهداً على أصالة الشاعرية الحزينة في نفسه :

« .. ضباب تبدده عواصف الريح ، ندوة تمتصه شفاة الصباح ، ظلام تقشعه  
قبلات الغزالة ، ورقة ناضرة تقصفها الأرياح وتحملها إلى حيث لا تدري ولا تريد ،  
تلك هي الحياة ! وهذا هو الموت ! .. . كما ينطفئ سراج فرغ زيتته هكذا تنطفئ  
حياة الإنسان !

الموت ! الموت ! كلمة رهيبية مكتوبة في كل مكان : على أديم القمام ، على صفحة  
الأرض ، على متن الرياح ، على كمن الزهرة ، على جذع الأرز ، على  
جبهة الإنسان ! » .

تلقي فوزي دروسه الأولية في الكلية الشرقية بزحلة ، وفي أول سني الحرب الكبرى  
انتسب إلى مدرسة الفرير ببيروت ، وهناك توثقت فيه روح الشاعرية والميل إلى  
النظم . وإليك نبذة سجلها في مذكراته :

« .. . وما أذكر من حوادث ذلك العام أن لجنة أدبية قوامها : الشيخ إسكندر  
الغازار ، والدكتور سليم الجليخ ، وبشارة الخوري الأخطل الصغير قدمت المدرسة  
لامتحان التلاميذ في نهاية السنة المدرسية ، فاقترح الأخطل الصغير ، وكان قد

أعجب بإحدى قصائدي ، أن أشطر بيتين من الشعر فكتبتهما على اللوح وشطرتهما ،  
وهاك ما قلت :

« صبراً على الأيام في بلواتها » فالصبرُ أولى لاتقاً آفاتها  
« لا بد أن تأتي على عاداتها » وإذا تجننت أو رمت سهم الشقا  
« إن كان عندك يازمان مكيدة » مكشوفةً فأنا لقا فتكاتها  
أو كان عندك آفةٌ محجوبةٌ « مما تكيد بها الرجال فهاتها ! »

وفي السنة الثانية عرب فوزي رواية « كترلف القرطبي » وشرع في تصنيف  
رواية « الحماسة في القفص » وفي سنة ١٩١٦ وضع روايته التمثيلية « ابن حامد »  
أو « سقوط غرناطة . . . » وهو في السابعة عشرة من عمره ، ونظم في حديثه  
قصائد جمّة ، حتى إذا تطور شعره وسما خياله أهملها ، وكان يقول في أيامه  
الأخيرة : « أحمد الله على احتجاب\* الصحف حين بدأت أنظم في أوائل الحرب  
العامة ، فقد ساعدني احتجابها على دفن منظومات يشرع في نشر مثلها كل من  
يبدأ في قرض الشعر ! » .

\*\*\*

كان في نية فوزي التخصص بفرع من فروع العلم ؛ لكن مدرسة الفرير

\* ذكرى فوزي — ص ١٠



بيروت أوصدت أبوابها عام ١٩١٤، فعاد إلى زحلة عما كفاً على المطالعة والدرس ،  
يساعده على تبسيط المباحث وشرحها والده النسابة . وكان له من الخزانة  
المعلوفية ما يشفي غلة نفسه ، ووجد من والده البجائية خير أب واسع الاطلاع ،  
ممرع الثقافة ، فشدن في جوف شذي الفوح ، معطر الأرج ، وإذ بالصحف بعد  
لأني من الزمن تتسابق إلى نشر آثاره الأدبية في أبرز حقولها ، مبشرة بهذه المنحة  
التي خصَّ الله بها دولة الشعر الحديث .

وحيثما دخل الحلفاء سوريا عام ١٩١٨ واستقامت الأمور هناك استدعاه والده إلى  
دمشق ، حيث كان عضواً في المجمع العلمي وقتاً على الآثار العربية ، فزاول فوزي  
عمله كأمين لصندوق دار المعلمين ، ثم كاتماً لأسرار المعهد الطبي العربي ، وشرعت  
الصحف والمجلات التي صدرت إبان ذلك العهد تنشر روايته ، ورأى الناس  
فيه خطيباً جريئاً ، فذاع صيته وفاح عبير شعره حتى أصبح مرموق المسكاة . ومن  
آثاره في دمشق دعاية شعرية تناشدها الناس في أسماهم بعنوان « يا ايل الوحل  
متى غده ؟؟ » عارض بها قصيدة « يا ليل الصب . . . ! » للحصري القيرواني ،  
متفنناً فيها بوصف وحل حي « باب توما » وإليكها :

هل سيلٌ يهدرُ جارِفُهُ ؟      أو بحرٌ يزخرُ مزبِدُهُ ؟  
أو وَحْلٌ يغطسُ عابِرُهُ      للرأسِ وما من ينجدُهُ  
لا يَنفَعُ ( كالوش ) فيه      و ( الكثر ) وما تترودُهُ

لم تهمله بلديتنا !  
لكن نصبت فيه شركا  
فيكف عن السهر المضي  
ما ينسى لا ينسى ليل  
لا نور الشارع يخرقه  
أسري فيه سير الأعمى  
وبرجلي ( كالوش ) لزج  
( كالوش ) رجلي ترعه  
والبرد يقضض أضلاعي  
ويعج حياي مصطنعيا  
فوقفت جزوعا مضطربا  
ظلم حولي ، مطر فوقي !  
وشرعت أغني من ولهي  
من لي ، من لي ، بعصا موسى  
حاشا ، حاشا ، ما أسرده  
لفتي مثلي يتصيدهُ  
ويريح الجسم ويرقده  
مقطوب الحاجب أسوده  
أو نجم الأفق يبدده  
يستهدي للمس فيرشده  
يهوي في الوحل فأسنده  
في الأرض وكفي تحصده  
ويدب بجسمي أبرده  
مطر ينهل معربدهُ  
أستهدي الأفق وأرصده  
وحل تحتي أتوسده  
« يا ليل الوحل متى غده ! »  
فتقيني مما أشهده



وأشقَّ البحرَ وأعبرهُ وأقيمَ الوحلَ وأقمدهُ !  
وفي صباح اليوم الذي طالع فيه ذوو الحل والعقد الدعابة في « ألف باء »  
الدمشقية سارعوا إلى تلبية سؤله وإزالة معالم الوحل عن باب توما ! .

\*\*\*

في صباح يوم ١٧ أيلول ( سبتمبر ) ١٩٢١ طوى فرخ النسر ذراعيه على شاطئ  
بحر الروم ونحرت السابحة به بحر الظلمات مودعاً بيروت إلى « سان باولو » حيث  
انصرف إلى تأسيس مصانع الحرير مع شقيقه إسكندر وشقيق وذوي خؤولته من  
آل معلوف ، ولم يلبه عمله الحر هذا عما فُطر عليه من شغف بالأدب ، فكان يفسح  
المجال لنحواطر نفسه وخلجات فؤاده واهتزازات قلبه ، فنظم المقاطع والملاحم ، وأقام  
في تلك المدينة « المنتدى الزحلي » مستهدفاً غاية أدبية محضة هي : « توثيق عرى  
الاتحاد بين الجاليتين\* السورية واللبنانية لترفعاهامة الفخار بين الأجانب » .  
وقد ترأس ذلك المنتدى ومثلت في أهبائه رواياته ومسرحياته ، فازدهر النادي وأصبح  
قبلة أنظار الناس هناك حيث أمه الغريبيون ليتعلموا ويتذوقوا حلوة الثقافة  
الشرقية وآدابها . وما برحت مجالس تلك المدينة ودارات سمرها تردد قصة « الفنجان  
العاشق . . . ! » ومجلها ، كما روتها صحف المهجر في حينه ، أن اجتماعاً عائلياً جرى

\* ذكرى فوزي — ص ٥



في منزل الوجيه جورج بك معلوف فسقط فنجان القهوة من يد قرينته الرفيعة  
التهديب السيدة إيزابيل عبود معلوف ، ولما كان المجلس يضم كلاً من الشعراء  
المعاليف : شاهين بك والمرحوم ميشيل بك وفوزي وشفيق ، فقد أثار شيطان  
الشمر تلك القرائح الفياضة فأشد شاهين بك يقول :

مثلَ الفنجانُ لما لامستُ شفتاهُ شفيتهاُ واستعَرَ  
فتلظتُ من لظاه يدها وهو لو يدري بما يجني اعتذِرُ  
وضعتُه عند ذا من كفها يتلوؤى قَلِقاً أني استقرُ  
وارتمى من وجده مستعظفاً قدميها وهو يبكي فانكسرُ  
وأشد ميشيل بك :

عاش يهواها ولكن في هواها يتكتمُ  
كلما أدنته منها لاصقَ الثغرَ وتمتمُ ...  
دأبه التقبيل لا ينـفكُ حتى يتحطمُ ...

وأشد شفيق مرتجلاً :

إن هوى الفنجانُ لا تعجبُ فقد طَفَرَ الحزنُ على مبسمها  
كل جزء طار من فنجانها كان ذكرى قبلةٍ من فيها

فنظر المرحوم فوزي إلى الفنجان فإذا هو لم ينكسر فقال معارضاً :  
 ما هوى الفنجانُ مختاراً فلو      خيروهُ لم يفارقُ شفيتها  
 هي ألقتهُ وذا حظ الذي      يعتدي يوماً بتقيلِ عليها  
 لا ولا خطمه اليأسُ فيها      هويكي شاكياً منها إليها  
 والذي أبقاهُ حياً سالماً      أملُ العودة يوماً ليدنها  
 وعلى الأثر تألفت لجنة قوامها ثلاثة أدباء للحكم في أفضلية الأبيات ، وعينت  
 السيدة إزابيل ساعة ذهبية جائزة يجرزها المجيد ، حكمت اللجنة للمرحوم فوزي  
 ففاز بالساعة وإذ ذلك قال خاله ميشيل بك مرتجلاً :

يا ساعة ! ما أنتِ أولَ ساعةٍ      ضيّعتها من ذكرياتِ حياتي  
 مادمتِ ضيّعتُ السنينَ فما أنا      بمعاتبِ دهري على الساعاتِ !

\*\*\*

أصاب فوزي في تجارته مع شقيقه وأخواله نجاحاً باهراً حتى حسبوه في  
 طبيعة الأثرياء ، ومع كل ما أصاب من ثراء لم يسلبُ القريض ولم تلته الأرباح عن  
 الأدب ، بل ظل عاكفاً على إرسال الشعر والنثر ، فتألفت نجومه ولعت كواكبه ،  
 وأجلته حملة الأقلام ، حتى إن المستشرق المرحوم الدكتور (G. Kamp F F Meyer) ،

وكان يدرس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية ببرلين ورئيس جمعية الدراسات الإسلامية فيها ، عقد مقالاً مستفيضاً في مجلته « معرض الأفكار الشرقية » جاء فيه : « . . . تتمشى النهضة الأدبية في الأقطار العربية الثلاثة ، مصر والشام والعراق ، بخطى متساوية متوازنة كأنما هي قلب خفاق يهتز تحت عاطفة واحدة ويتنفس عن شعور واحد ، وقد انقسم السائرون بها ، من حملة الأفلام ، إلى أقسام ثلاثة :

الفريق الأول — مشبع بالحنين إلى القديم ، وإن طرب لبعض بدائع الجديد .  
الفريق الثاني — يصغي إلى موسيقى التطور الأدبي في الغرب ثم يوقع أنغامه على وتر شرقي .

الفريق الثالث — هو النشء الجديد ، وهو كهنادب الربيع ، تسمع منه وهو في صبح الحياة الذ أنغام الآمال ، كما ترى فيه أجمل ابتسامات المستقبل ، والغد له ولا شك . ومن هذا الفريق فوزي المعلوف » .

بينما كان فوزي في ثورة صباه وتأجج شاعريته ، داهمه مرض عضال وهو يتفقد حانوته التجاري الكبير في « ريودي جنيرو » — عاصمة البرازيل — فصرعته نوبة الداء في العشرين من شهر تشرين الثاني ( نوفمبر ) سنة ١٩٢٩ ، وعلى الفور أجريت له عملية جراحية كان وقعها ألياً على أهله وإخوته وذويه الذين رانت عليهم سحُب الأحزان ، ولبثوا في حيرة وذهول ، وظل النزلة في عاصمة البرازيل على اهتمام



متواصل بالفقيد ، فما أعظمها عاطفة ، وما أخصمه شعوراً ، وما أغلاه عيلاً ، وما  
أسماه شاعراً !

لبث فوزي في المستشفى الإنجليزي أربعين يوماً ونيف ونوانع الأطباء  
قائمون على معالجته ، وأشهر المرضات واقفات على خدمته ، وحجيج العواد  
لا يحصره عدّ ، ولا يحصيه حساب . . . وقلوب ذويه تحفق لأقل حركة يقوم  
بها أو إشارة يبدئها ، لكن سبل هذه العواطف لم يحل دون مصرع النسر ! فكان  
فقدته رزاً صُدع به مفرق الشباب ، وثلم ركن العبقرية ، وهبيض جناح الشعر ؛  
فلفظ روحه الذكية في فجر يوم الثلاثاء المصادف ٧ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٠  
فانسابت صحف البرازيل إلى نشر رسومه وترجمة حياته ووصف مآتمه ، كما تسابقت  
الصحف العربية وغيرها إلى وصف مآتمه والحفاوة بجثمانه ودفنه ، وكان شركات البرق  
أدركت هول المصاب فطيرت نعيه إلى سائر أنحاء المسكونة ، ومما قالته ( هافاس ) :  
« مات الشاعر الكبير فوزي معلوف وهو من كبار رجال الصناعة في سان باولو » .

\*\*\*

يحتفظ شفيق المعلوف بين مذكراته بنسخة عربية من قصيدة « الطيارة » (\*)  
أو « على بساط الريح » دفعها الطابع في البرازيل لتصحيحها فطلب فوزي إلى

(\*) من أبرز منظومات الفقيد وسيجيء الحديث عنها .

شفيق رؤيتها وهو على فراش الداء وعلى أتم انتباهة ، فيينا هو يقرأها تناول من شفيق القلم بيد مرتجفة أجهدها الضعف ، وأمره إمراراً سريعاً متواليات تحت البيت الذي يقول فيه عن أحلام الشاعر :

وتلاشت حلاماً خلاماً إلى اللا شيء تمشي به قليلاً قليلاً

ثم سكت فوزي ودفع إلى أخيه ما بيده ، فأخذ شفيق يتفحص المكان الذي وضع تحته خطأً ليتبين موضع الخطأ فلم يظفر بشيء منه ولم يسأله شيئاً ولا هو تكلم حتى إذا لفظ روحه و « توارت أحلامه . . . » بعد أيام ، علم أن ما أشكل عليه فهمه قد فسّر الموت طلاسمة . . . وفي الساعات الأخيرة التي سبقت وفاته لاحظ ذووه تعباً في عينيه ، في الساعة التي تودع بها الشمس الجبال ، وكان يطيل التحديق من نافذة غرفته ، وهي قائمة على رابية سوداء أمام « جبل السكر » القائم ، وآخر ما قاله فوزي على فراش النزع : « إنه يريد أن يمشي . . . ! » وكان قد طلب ذلك قبل أيام فأجابه أخواه وذووه إلى سؤاله ، وما كان في حسابهم ، حين رأوه متحامللاً بجسمه الناحل عليهم وعلى نفسه ، أن في بعض خطواته المتشاقلة بعض الشيء من قوله :

إن بين السرير والنعش خطوات دعوها الوجود وهي بعكسه  
فأعلق فوزي عينيه على الدنيا التي لم يستمرى فيها عيشاً ولا استطاب نوراً



ومشى إلى الأبدية . . . إلى حيث الخلود ينشد نفسه جذلاً مهلاً من شعره قوله :

إني شاعرٌ بروحي فوق الموت تمشي بكل حي وبغضي  
إيه يا موتُ لن تمسَّ خلودي فاقضِ ماشئتَ لست وحدك تقضي  
فأنا خالدٌ بشعري على رغامِ زمانٍ عن قيمة الشعرِ يُغضي ! !

\*\*\*

تحدّر فوزي من أسرة طيبة الأعراق ، سامية الأخلاق ، جمعت إلى نخامة الجاه ، نخامة الثراء ، وترعرع في محيط راقٍ وبيئة عريقة النسب ، عريضة الحسب ، وامتاز بدمائة خلق ورفاهة حسن ، وكان متحمساً لرفع الاسم السوري في المهجر حتى إن جريدة الوطن البرازيلية ذكرت أن أحد كبار موظفي الحكومة في ريو دي جنيرو سأل منشئها يوماً عن المرحوم فوزي قائلاً : « إن هذا الشاب ليس له نظير بين قومك السوريين ، فهو راقٍ في حديثه وسلوكه وطرق معيشته ، وإنه أشبه شيء بأحد سفراء الدول » فأجابه صاحب الوطن : « إن بيئة المرحوم فوزي راقية جداً إذ تستمتع في المواطن والمهاجر بمركز اجتماعي وعلمي ؛ فهو أحد خاصة السوريين ، وعدد هؤلاء قليل في البلاد ! » .

وروى صاحب الوطن أن أحد كبار الأطباء أظهر إعجاباً الكثير بفقيد الأدب

العربي قائلاً : « إنه أشبه شيء بأحد أمراء الشرق ، فهو ممتاز بأدبه وكرمه وطرق معيشته » !

ونشرت مجلة « الكلية » في بيروت كلمة للدكتور فيليب حتي أستاذ علم التاريخ الشرقي في جامعة « برنستون » بالولايات المتحدة ، تناول فيها وصف رحلته إلى البرازيل عام ١٩٢٥ جاء منها :

« ... قلّ بين الشبان الذين تعرفت بهم في السنين الأخيرة — ولقد اجتمعت بالعدد الوافر منهم في القارات الخمس — من أثر في نفسي أثراً مستحسباً أشد من الأثر الذي تركه فيّ فوزي المعلوف . فلقد اجتمعت به للمرة الأولى والأخيرة تحت سماء البرازيل الصافية ، كصفاء ذهنه ، الحارة كحرارة شعوره ، لاحظته يتراأس جمعية هو أصغر أعضائها سنّاً ، أصغيت إليه وهو يتلو قصيدة نفيسة من نظمه في حفلة متخرجي جامعة لم يدرس فيها ، رافقته إلى معمله وهو يشرح لي أسرار صناعة كان يمارسها ، جاست إلى جانبه متنزهاً في مزارع البنّ تحت أشجاره يحادث ويفكّه ، سمعت الناس يتحدثون عن امتيازهِ أدبياً وعلمياً وخلقاً ، فإذا بفوزي في كل هذه الحالات هو ... هو ... وفي الأخلاق ، لطيف المعشر ، كبير النفس ، بعيد النظر ، على استعداد دائم للعطف على كل مشروع فيه خير للبلاد السورية التي أحبها وأنشأته ، عطف عملي لا شفهي فقط . وخلاصة القول كان فوزي المعلوف يمثل الفتوة العربية في أحسن مظاهرها » .

ومن درس شعر هذا النابغ وتعمق في مكنوناته ، ومطاوي أسراره ، يلمس فيه  
نزعة السمو والتجليق عن كل إسفاف . فما اشتهر به عداؤه للمال مع توفيره له ؛ فتراه  
يقول فيه :

المالُ ! ليس المال عندي سوى جرادة العيار والزئبق  
وكان الثراء عبودية يزرع تحتها المألوف فقد قال عن نفسه :  
عبد مالي أحظى به بعد جهدٍ فإذا بي أنوء من ثقل نيره  
وفوزي — كما تستروح ذلك في سائر منظومه — من الخارجين على عبادة المال  
فقد عدّها بين الذنوب والمثالب في قوله :

لم أعبدِ المالَ حياتي ولم أكذبُ ولم أقتلُ ولم أسرقِ  
وما كان في ذلك مدّعياً ، ولا نظر من وراء المسال إلى غير الغايات النبيلة ،  
فقد أنشد يوماً :

المالُ ليس مشرفاً لرجالهٍ قدرُ الرجالِ هو المشرفُ مالها  
لا خير في نعمٍ رفلتَ بثوبها إن لم تقدُ منها الحياة وآلها

\*\*\*

كان المترجم له متحمساً لوطنه ، يتمنى للعرب كل سعادة ومغنى ، وفي العهد الوطني



— الفيضي — عُرف بوطنية لاهبة وحماسة متأججة ، ومنذ العهد العثماني إلى الاحتلال ، إلى هجرته إلى البرازيل ، ثقاب فوري في أطوار ثلاثة ، وفي هذه المراحل الثلاث سادت شعره الوطني مرارة تحس منها بشيء في الأبيات التالية وهي من آثار العهد الأول :

تجافيتُ في شعري السياسةَ مدَّةً      لعلمي بما يُرمى به قائلُ الصدقِ  
وعندي شؤونٌ لو أردتُ بيانها      لكان نصيبي أن أساق إلى الشنقِ  
أرى أمّتي تمشي بكل غباوةٍ      إلى حيث لا تلقى سوى البؤسِ والسحقِ  
لقد قيل إن الشرق أتعسُ موطنٍ      ونحن، لسوء الحظ ، أشقى بني الشرقِ

ولقد أنشد في هجرته إلى البرازيل من قصيدة :

لهفي للربوع تضحى وتمسي      وهي خلوةٌ إلا من التنكيدِ  
ينزح الساكنون عنها - ووجه الـ      أرض رحبٌ - إلى المزار البعيدِ  
هجروها وماءها وهوها      لم يطيقوا فيها هوان القعودِ  
ودعوها والدمعُ ملء المآقي      لنواها ، والنارُ ملء الكبودِ  
ولو أن الأصمَّ يسمع صوتاً      صرخوا بالبواخر الصمِّ : عودي...!



ولكن الباخرة الطرشاء .. الصماء ... كانت في شغل عن أماني المهاجر ...  
فسارت تشق به عباب الماء ... غير آبهة لزفرة أمه ... وحرقة أبيه ... مجتازة  
به مياه الإنلتي ... وهناك حطَّ عصاً تسياره في بلاد لم يآلف جوها من قبل .  
ورغم ما أصابه في ديار الاغتراب من غنى وتراء تراه يذكر بلاده ... ويرى ما عداها  
من البلدان مجدأ زائلاً ، وفي ذلك يقول فوزي من قصيدة :

لا المجد في الأرض يُرضيني ولا الذهبُ  
إن لم يكن في بلادِي المجد والنسبُ  
ولا السعادة بين الناس تُقنعني  
إن كان من حظ قومي الضيم والنصبُ  
تالله ما البعدُ ينسيني مودتهم  
فالجسم مبتعدٌ والقلبُ مقربُ  
الناسُ نحو الترقى مشيها خببُ  
ونحن نحو التلاشي مشينا خببُ  
والجهلُ والدينُ والإهمالُ علتهُ  
وليس علتهُ غازٍ ومنتدبُ  
إيه بني وطني والناسُ قاطبةُ  
لرفع أوطانها قامت لها أهبُ  
هبوا إلى المجد ولننشىء لنا وطناً  
قوامه العلم لا الخطية القضبُ

إلى أن يقول :

تالله لا نرتقي إلا متى اتحدتْ  
تلك المآذن في الأوطان والقُيبُ

ولتستعد لغة الضاد التي دُعيت أم اللغاتِ شباباً بردها قسب  
إن لم نكن كلنا في أصلنا عرباً فنحن تحت لواها كلنا عربُ

\*\*\*

كان جل ما يطمح إليه شاعر الأمة المشردة أن يكون لبني قومه كرامة وحرمة في  
داخل بلادهم وخارجها غير آبه لاختلاف الوسائل النبيلة المفضية إلى تحقيق ذلك مهما  
تضاربت حولها الآراء وتباينت النزعات . ولا نفعل تقديسه لحرية الرأي وتجنبه  
الجدل فيما لا يعود على الوطن بخير ، اعتقاداً منه بأن لكل رأيه ومذهبه ...  
كان فوزي في دمشق يوم قرر أن يكون العلم الفرنسي ، وفي وسطه الأرزة ،  
علماً للبنان ، وكان من القائلين أن يكون للبنان علمٌ مستحدث خاص به ، فنشرت  
الصحف قصيدته اللبنانية التي يقول فيها :

... يا حنيني إلى فضائك لولا ما به اليوم من غمامٍ سودٍ  
وإلى الأرز شامخ الرأسِ لولا أنهم حملوه ذلَّ السجودِ  
وضعوه طي المثلث تحت البيض بين الدما وبين الحديدِ !  
ودَّع فوزي وطنه بدمعة الكبرياء فنظم وهو على الباخرة قصيدة جاء منها :  
مهما يجرُّ وطني عليّ وأهلهُ فالأهلُ أهلي والبلادُ بلادِي



أرثي لبؤسهم فأندبُ حالهم - بفي ، وأرثي حظهم بمداد  
خبطوا بظلمات الضلال ولم يقم - فيهم إلى السبل القويمه هاد  
واستعذبوا ذل القيود فأصبحوا - يتفاخرون بنير الاستعباد  
وغدا بهم لبنانُ بعد عجيجه - بالأسد ، مأسدة بلا آساد  
هم ضيعوا إرث الجدود فنالهم - غضبُ الجدود ولعنة الأولاد  
قسماً بأهلي لم أفارق عن رضى - أهلي وهم ذخري وركن عمادي  
لكن أنفتُ بأن أعيش بموطني - عبداً وكنت به من الأسياد

وعثر شفيق بين مطويات أخيه على أبيات قد يكون بدأ بها نشيداً لم ينجزه ،  
ومنها غصّة تتردد في صدر كل من اغترب عن موطنه ونزح عن أهله ، وقد هال  
فوزي أن لا تكون كرامته القومية في مصاف كرامات الأمم الحية فقال :

أمري عجيبٌ - بين الأمم      أتى أميلٌ - ألقى المحن  
أنا الغريبُ - فلا علمٌ      ولا قبيلٌ - ولا وطنٌ

وأنشد من قصيدة عنوانها « أماني مهاجر » :

أنا الغريبُ فلا أهلٌ ولا وطنٌ      إذا انتسبتُ أمام الناس وانتسبوا

ولا لواء إذا دُقَّ النفيرُ مشى يحميه من صيد قومي العسكرُ اللجِبُ  
ومن يكون غريباً في موطنه لا بدع إن أنكرته الأرضُ والشهبُ!

وتحضرني الساعة ، والبحث يتناول وطنية فوزي ، خطبة مستفيضة ارتجلها في  
حفل ضمَّ رعيلاً لجباً من شبان العرب بدمشق وقد استهلها بقوله :

« إننا أمة تجمعنا ثلاث حلقات : حلقة من نار وهي أجداد جدودنا العرب ،  
وحلقة من حديد وهي قيودنا التي نعانينا ، وحلقة من ورد وهي آمالنا في المستقبل  
الذي نريده عهداً جديداً للعرب . . . »

لقوزي العلو ف طائفة من المعربات عن الفرنسية والبرتغالية والإسبانية من أبرزها  
« شاعر إسباني كبير يتفاخر بنسبه العربي » نشرها المقتطف عام ١٩٢٩ . وقد تناول  
فوزي حياة أمير شعراء الإسبان فرنسيسكو فيلا سباسا\* الذي تغنى بأجداد العرب  
وبكاهم في شعره وخطبه وقصائده وتفاخر بتحدده من صابهم والانتفاء إلى صميمهم ،  
ومن تلك المقالة ملحمة « فيلا سباسا » في بكاء « غرناطة » الأندلسية ، وقد عربها  
فوزي عن الإسبانية وهي :

غرناطة ! أوَاه غرناطة ! لم يبق شيء لك من صولتِكَ !

\* بلغ من حب الشاعر الإسباني للعرب أنه كان يتنقل في شوارع (مدريد) الكبرى  
مرتدياً ثياباً عربية وعلى وسطه خنجر ذهبي !



هل نهرك الجاري سوى أدمع والنسمةُ الغاديةُ الرَّائحةُ  
هل هي إلا زفرة نأحه ما عدت في النهر كسلطنةٍ  
تجري على مادال من دولتك؟ للقبّة الحمراء في تاجها  
وهج ولم تُذنة اللامعة آه على أمجادك الضائعة  
شيعتها بالنظرة الدامعة مرت مرور النهر من جسره  
وأورثتك النوح في عزلتك غرناطة! أوّاه غرناطة!

لله حمراؤك تحسو الأسي لم يبق لا زهوة ندمانها  
وحيدة في الروضة الخالية ولم يعد للحب فيها أنين  
ولا صدى أعيادها الماضية بيننا يحيل البدرُ الحاظه  
ينقله - العود - عن العاشقين بين أريج الزهر المنتشي  
باهتة في المرمر اللامع وبين شدو البلبيل الساجع

وقصرها الخاوي بأرجائه كم غمر الليل بضوضائه  
إذ الجواري خاطرات على سجاده جارية جارية  
أروع ما في الشرق من رقصه تنسجه أقدامها العارية

غرناطة ، أوّاه غرناطه ! ما أنت إلا خرب قبّعه  
تحمل أسراب السنونو إلى إفريقيّا أنباءك الفاجعه  
هناك أبناؤك من بأسهم باكون ، لا باكون من بأسهم  
عرّوا من الأنعام بيض الظبي ووشحوا الخيل بيض السروج  
ويتمّوا البحر فلما بدت منك على الأفق جبال الثلوج  
خرّوا على أوجهم راكعين وزفروا من قهرهم صارخين :  
غرناطة ، أوّاه غرناطه ! ضعت فيا للعظم الضائمه !  
فيزفر الموج ويكي لهم حين يرى أعينهم دامعه !

ولغوزي ، فضلاً عن هذه المناسبة الغرناطية ، أربعة دواوين شعرية هي : « شعله العذاب » و « تأوهات الروح » و « من قلب السماء » و « أغاني الأندلس » وإنها

بحق لقلائد كريمة في جيد الأدب العربي بعثها شاعر حالم عامل على نشر أمجاد العرب  
في كل بقعة يهزها الشعر وتستغفرها الأحلام !

\*\*\*

التشاؤم في عُرْفِ المتفائلين ضرب من الخلط والجنون ، وفي نظر فرسانه وفرسانه  
نتاج تفكير عميق وشعور صادق يصل إليهما حتماً كل من نظر إلى الحقائق والكائنات  
نظرة الباحث المدقق . ولكم سمعت أناساً يرددون في كل ظرف ومناسبة : « هل  
الوجود غير ألم . . . و بؤس . . . وشقاء . . . ؟ هل الإنسان إلا مخلوق معذب . . . ؟  
هل الحياة إلا مظهر من مظاهر التفاعل الكيماوي . . . ؟ سخافة وشقاء دائم من المهد  
إلى اللحد . . . أولها عناء . . . وآخرها فناء . . . ! وما قيمة الخير واللذة إذا أصاب  
رشاشهما الإنسان حيناً من الزمن ؟ إزاء حياة متواصلة الألم . . . مكتنظة بالمآسي ؟  
تنقص عليه عيشته . . . وتجرحه الصاب والمعلم ؟ ! » .

والتشاؤم بهذا المعنى : ضرب من الفلسفة ، له رعييل ليجب من العلماء والعظماء  
أمثال « هه راقليت » الفيلسوف اليوناني ، و « لاروشفو كولد » و « شوبنهور »  
و « هارتمان » عند المحدثين !

لم يعدم الشعر العربي في تالده وطارفه حفنة ضخمة من فرسانه المجلدين الذين



أصابهم التشاؤم بسهام عضوضة وجعلهم فرانس سويدانه ، وعلى رأس الأوائل منهم  
« ابن الرومي » و « الخطيئة » و « الشنفرى » و « الحكيم المعرة » « أبو العلاء » القائل :

وإذا أردتم بالبنين كرامةً فالحزم أجمع تركهم في الأظهر !

وعلى رأس الفريق المتشائم من شعراء هذا العصر ، جميل صدقي الزهاوي ،  
وحافظ إبراهيم ، وولي الدين يكن وفوزي المعلوف وأحمد الصافي النجفي القائل  
من قصيدة :

ليت أُمي من قبلُ كانت عقيماً أو أبي كان مبتلىً بالخصاء !

وان يفوتني الساعة ، والمناسبة مؤاتية ، إلا أن أضيف إلى قافلة الأواخر من  
شعرائنا المعاصرين الذين طبعهم التشاؤم بطابعه ، شاعراً تونسياً كان هزراً فاتتجر  
على أيكة التشاؤم وخرَّ صريع عويله ونواحه . . . وأعني به أبا القاسم الشابي  
الذي كان برماً بالحياة ، كثير السخط والحنق على شعبه ، ناقماً أشد النقمة على  
خمول بيئته ، وحاملاً معول الهدم على تقاليد محنطة وعادات بالية تحف بالشعب الذي  
ساكنه ، وبللمربع التي نبت فيها . و « النبي الجهول » ألمع قصائد الشابي إذ تنزى  
آلاماً وتباريح وقد استهلها بصرخة مدوية أشف عن نفس ملذوعة وكبد مصدوعة ،

وشعور مرهف لتأخر أمته عن قافلة الأمم الواثبة للمجد ، المتطلعة إلى فجر النهوض .  
واسمعه يقول :

أيها الشعب ! ليتني كنت خطأ      بأ فأهوي على الجذوع بفأسي  
ليتني كنت كالسيول إذا سا      لت تهّد القبور رمساً برمس  
في صباح الحياة ضمّنت أكوأ      بي وأترعتها بخمرة نفسي  
ثم قدّمتها إليك فأهرقــت رحيق ودست يا شعب كأسي  
فتألّمت ثم أسكت آلا      مي وكفكفت من شعوري وحسي

ها أنا ذاهبٌ إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي بيأسي  
سوف أتلو على الطيور أناشيدي وأفضي لها بأحزان نفسي  
فهي تدري معنى الحياة وتدري      أن مجد النفوس يقظة حس  
عن مصبّ الحياة أين مداه ؟      وصميم الوجود أيان يرسي  
وعبير الوجود في كل فيج      ونشيد الطيور حين تمسي

وأغاني الرعاة أين يوارىها سكون الدجى وأيان ترسي ؟

\*\*\*

ترعرع فوزي المعلوف في بيت سياجه العلم والفضل ، وتمايل مهده بين أنوار الأدب والتاريخ ، ودرج في معارس المجد والسؤدد ، وتاه في مطارف العز والدلال ، وحباه المولى الكريم بأضخم ما يتمناه امرؤ في هذا الوجود : أب من سادات لبنان ، وأم من أرفع بيوتات زحلة ، وأهل وإخوة كلهم أفذاذ توابغ انتشرت زحوفهم في أنحاء العالم ، وثرأ واسع ضاف . وزد على هذا كله جمالاً جذاباً وصحة مشرقة ومستقبلاً باسماء وشهرة ملأت الدنيا وشغلت الناس ؛ يواكب ذلك كله احترام وحفاوة حيثما حل واستقر . . . فماعلة تشاؤمه واربداد أفته . . . ؟ وما الباعث على نزوعه إلى التأفف والثورة ؟

سؤال يردده الباحث الخيران المضطرب مرات في نهاره . . . ومشكاة يقلبها المحقق المستطلع على أوجه شتى علّه يجد حلاً لهذه الظاهرة الغريبة . . . وبعد مطاف طائل . . . وتفكير متواصل . . . لا يجد إلا أن فوزي رأى ببصره الثاقب أن كل ما في الوجود وهم زائل . . . فأبت عليه نفسه الصافية الطموحة إلى الكمال الإنساني أن يغمض عينيه على عيوب هذه البشرية ومثالبها . . .



فهبَّ من توهّ نائراً على المجتمع المريض . . . يقارع الظالم وينعى على الناس  
تفسّح أخلاقهم وانزلاق خلاطهم ، بعد الذي بلاه منهم ، فعَمَد إلى يراعه . . .  
واستعان بشاعريته الفياضة حيث راح يرسم خنوع الناس وتكالبهم على المسادة  
وانغماسهم في الشهوات والمبازل . . . مقابلاً بين « المثل العليا » التي خَلق الإنسان  
لها وبين انصرافه للشر وسعيه للضرر والأذى . . . وإن هذا العالم الذي وُجد لرفي  
البشر قد شدَّ عن غايته وهدفه وأصبح وسيلة للخراب والدمار ؛ فاصطدم هذا كله  
بإباء فوزي وعلو همته . . . وانبرى يصور للناس شقاءهم . . . منزلاً لهم الآية  
الشعرية تلو الآية . . . مدلاً بسامي مشاعره وتصويره الفني الدقيق على ما تبلوه  
البشرية العمياء الجانية من مصائب وشقاوات ما دام أبناؤها سادرين في غوايتهم  
وعاملين على إشادة مدنيّتهم الزئبقية الزائفة التي لن يكتب لها الخلود والبقاء على  
توالي الأجيال . . . :

ليت عمرانه تأخر أجيا لآ فكل الخراب في عمرانه

روى الذين عرفوا فوزي عن كُتّب أن الابتسامة لم تفارق ثغره . . . فكيف  
التوفيق بين تلك البسمة وبين كآبة نشرت جذورها في قلبه ؟ ! وانبسط ظلها على  
على سائر منظومه ؟ أكانت البسمة خلقة بين شفّيته ؟ أم أن أسارير وجهه فطرت

على الانبساط؟. وقد خشي أن نخونه بشاشة وجهه حين ودّع بلاده إلى المهجر فقال  
مخاطباً نفسه :

حاذري أن يخونني الجلد الواهي فيبيدي وجهي طوايا ضلوعي!

كان فوزي يخفي تحت كل ابتسامة حرقة... رغم ما كان فيه من عمرة  
نعمة... وسمو عنصر... وإذا رددنا انقباض نفسه حينئذ إلى ما تناوشها من  
العوامل، لاعتزاهم النزوح عن وطنه ووداعه ربوع أحبته، فهل نستطيع تعليل  
لهجته الحزينة فيما قاله يوم عيد مولده، قبيل وفاته بأيام قلائل، والحياة تهش له من  
كل جانب :

بِسْمَةِ الْأَهْلِ - يَوْمَ نَوْلِدُ حُولِي      عَبْرَاتٍ - عَلَى الْمَهْجُورِ  
دَمْعَةُ الْأَهْلِ - يَوْمَ نَلْحُدُ سَيْلِي      بَسْمَاتٍ - عَلَى اللَّحُودِ

ليت شعري! لمن بسمتم؟ ألا  
وعلى من بكيتم؟ أعلى الرا  
يولد الطفل للعذاب وهذي  
تي إلى الكون مستهلاً بعبيره؟  
حل عنه وزاده منه حسره  
سنة الدهر وفي الطفل شره

بين أوجاع أمه دخل المهدي وبين الأوجاع يدخل قبره

بُشِّرَتْ بِالْجَنِينِ وَهِيَ نَذِيرٌ لَا بَشِيرٌ ، فَالسَّوَاءُ يَمْلَأُ عَمْرَهُ  
مَا وَلِيدَ الْآلَامِ غَيْرِ أُسِيرٍ وَالرَدَى وَحْدَهُ يَحْرَرُ أَسْرَهُ  
ضَاقَتِ الْأَرْضُ فِي الْحَيَاةِ عَلَيْهِ وَكَفَّتْهُ فِي الْمَوْتِ أَضِيقَ حَفْرَهُ  
« تَعَبُ كُلِّهَا الْحَيَاةُ أ » وَهَذَا كُلُّ مَا قَالَ فِيلْسُوفُ الْمَعْرَةَ  
أَوْفِيَا يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، وَقَدْ اسْتَشْرَفَ مِنْهُ يَوْمَ مَصْرَعِهِ وَتَرَاهُ لَهُ الْمُبْضِعُ  
فِي يَدِ الْجِرَاحِ :

طَوَيْتُ بِسَمَةِ لِيَنْشُرَ دَمْعٌ وَخَبَّتْ بِهَجَّةٍ لِيَامَعَ جَرْحٌ

ثم تسمعه يقول في موضع آخر :

أَلَمْ كُلِّهَا الْحَيَاةُ فَلَا تُضْحِكُ تُفْرَأُ إِلَّا لِتُبْكِي عَيُونَا

يعج شعر فوزي بنزعة التشاؤم . وإليك مقطوعة من قصيدة مطولة يخاطب  
بها الموت وقد اختلى إلى نفسه في ليلة يصفها : « . . مهيبية \* عمَّ بها الجزع . . »  
لما نقلته الصحف عن نبوءة الفلكي الإنجليزي « بورتر » الذي أُنذِرَ العالم بالخراب

\* ذكرى فوزي س — ١٣



وفقدان جاذبية الكون وحدث طوفان وزلازل في ١٧ كانون الأول سنة ١٩١٩ :

والآن يا موت إليّ اقتربْ يا مرحباً بالموتقِ المعتقِ  
معتق نفسي من قيودِ الأسيِّ موتقِ جسمي في المدى الضيقِ  
هاك شباباً ناضراً فاحتسبْ وهاك قلباً نابضاً فاخفقِ ...  
لم يبق لي في الأرض من بغيّةِ ما الأرض إلا جنةُ الأحقِ

الناس ! ما فيهم سوى غادرٍ مراوغ ، أو مفسدٍ مقلقِ  
المال ! ليس المال عندي سوى جرادة العيَّارِ والزُّبِقِ  
الشعر ! بجرٍّ كاملٍ وافرٍ وليس يروي غلّةَ المستقي  
السيف ! والفرد بطيَّارةٍ أقوى من الفرقة والفيلقِ  
العلم ! والكاسب من معولٍ خير من الكاسب من مهرقِ  
الحب ! قف يا موت واشفق على قلبي ودعه لحظةً يخفقِ ...  
دَعْ مقاتي تبكي قبيل النوى تبكي على الورد ، على الزنبقِ

تبكي على روض غرامِ ذوى ما فيه من زاهٍ ومن ريقِ

لي بغية قبل الردى ليتها تمت فلم آسفٌ ولم أفرقِ  
وتلك أن الملح محبوبتي فنحن بعد اليوم : لن نلتقي  
وتلمس معالم الألم ظاهرة بينة في ماحمته الشعرية « شعلة العذاب » وقد فاجأه  
الموت قبل أن ينجزها بل تركها مخطوطة بيده واستهلها بقوله في « لغز الوجود » :  
بُرعم الزهر ما وجدت لتبقى بل ليمضي بك - الخريف  
هذه حالنا : خلقنا لنشقى ولتقضي بنا - الحثوف

كيف جئنا الدنيا؟ ومن أين جئنا؟ وإلى أي عالمٍ سوف نقضي؟  
هل حيننا قبل الوجود؟ وهل نبـمـث بعد الردى؟ وفي أي أرضٍ؟  
هو كنه الحياة ما زال سرًّا كل حكمٍ فيه يؤول لنقضِ

كيف أجلو غدي؟ وأدرك أمسي وأنا حرتُ كيف يومي سيمضي

قد حُيننا قبل الولادة لكن      يجدود قضاوا كما سوف تقضي  
 وسنجيا بعد الردى بينينا      في كيانٍ نعطيه بعضاً لبعض  
 كان بذر النبات نبتاً وأذوى      فجئنا من بذره كل غصن  
 ذلك شأني بالجسم في الأرض لكن      جوهرى في مصيره غير عرضي  
 إنني شاعرٌ بروحي ، فوق السموت تمشي بكل حي وبغضي  
 إيه يا موت! لن تمسّ خلودي      فاقض ماشئت لست وحدك تقضي  
 وإذا كنت مالكا أمر روجي      مثاما أنت مالكا أمر نبضي  
 فأنا خالد بشعري على رغام زمانٍ عن قيمة الشعر يُغضي  
 إلى أن يقول :

مرحباً بالعذاب ياتهم العيـن التهاماً وينهش القلب نهشاً  
 مشبعاً نهمة إلى الدم حرّى      ناقماً غلة إلى الدم عطشى  
 ولغوزي بيت في الشاعر ما رددته مرة إلا تراقت في تخيلتي صورة ذاهلة  
 متحركة يتنازع قسماؤها القطوب تارة والابتناسام طوراً وهو :  
 ... هو لا يعرف التبتسم إلا      عند ما يستعيد حاملاً جميلاً



ولئن زخرت ملحمة «شعلة العذاب» بتشاؤمية فاحمة . . . وتطير زاعق . . .  
إن في إياذة الشعر العربي «على بساط الريح» أثراً جليلاً لهذا التطير وتلك التشاؤمية ،  
وقبل أن أفضي بك إلى هيكل تلك الملحمة فتستروح شذاها وتتلو سورها وترتل  
آياتها ، أود أن أضع بين يديك النشيد الثاني عشر منها الموسوم بـ «كفارة الشاعر» :

وتجلّت روحٌ على القرب مَنّي      رَمَقْتَنِي - بلا غضبٍ  
خَلَّتْهَا أَقْبَلْتُ تَدَافَعُ عَنِّي      صَحَّ ظَنِّي - ولا عجبٍ  
هي رُوحِي جَاءَتْ تَخْلُصُنِي مِنْ      غَضَبِ الْعَالَمِ الْفَخُورِ بِشَمْسِهِ  
طَوَّقْتَنِي بِكُلِّ عَطْفٍ وَصَاحَتْ :      أَخَوَاتِي رَفَقًا بِهِ وَيَبُؤْسِهِ  
هو بالرغم عنه من عالم الأَرْضِ      ضَ تَرَيَا بِشَكْلِ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ  
سَكَنَ الْأَرْضَ مَرْغَمًا وَهُوَ لَوْ خَيْرًا      مَا اخْتَارَ غَيْرَ ظَلَمَةٍ رَمْسِهِ

وفي هذا النشيد تلمس احتقاراً متناهياً للحياة . واسمع فوزي في النشيد العاشر  
من تلك الملحمة يقول على لسان أحد الأرواح عن أخيه الإنسان :

هو يَحْيَا لِلشَّرِّ فَالشَّرُّ يَحْيَا      أبدأ حيث حلَّ شؤم ركابه  
وهو لا يَنْفَعُ البَسِيطَةَ إِلَّا      حين يشوي في القبر بين رحابه

\*\*\*

في إبّان الحرب الضروس الماضية ، قمت بزورة للدار المعلوفية العامرة في زحلة ،  
وتناولت مجموعة رسوم للفقيد في شتى مراحل عمره ، فالفيت بينها رسماً وجدّه شفيق  
بين ملفات أخيه في — سان باولو — وقد وشحه شاعر الطيارة بهذين البيتين :

كل هذي الحياة وهمٌ وهذا الرسم وهمٌ وما أنا غير وهمٍ  
غير أن الرسوم تبقى طويلاً وأنا أتحى بروحي وجسمي

من الناس فئة لا ترى الإنسان سعيداً . . . مغبوط العيش . . . موفور الهناء  
إلا حينما تتوافر له أربعة عناصر هي : الحياة والمال والشهرة والحب . وفي زعم تلك  
الفئة أن السعادة متمثلة في تلك العناصر الأربعة . . . غير أن فوزي الفيلسوف  
يرى في تلك العناصر عبودية وشقاء :

أنا عبد الحياة والموت أمشي	مكرهاً من مهودها لقبوره
عبد ما ضمت الشرائع من جو	ريخط القوي كل سطوره
عبد مالي ، أحظى به بعد جهدي	فإذا بي أنوء من ثقل نيره
عبد اسمي ذوّبت بروحي وجسمي	طمعاً في خلوده ونشوره

عبدُ حيي ، أنزلتهُ في فؤادي فكوى أضلعي بنار سعيره

ولئن رأيت في القرن العشرين عصر مدنية يسير فيها العلم والاختراع الجهنمي  
سيراً حيثناً إن فوزي لا يرى في هذا التقدم الزائف وذلك الاختراع الهدام إلا مؤناً  
وذخائر تغذي الحروب . . . وتنهك الشعوب . . . ونصرع الغالب والمغلوب . . .  
فحيث ترى أنت تقدماً وخيراً يرى هو تأخراً وشرأ . . . وهالك صورة إنسان القرن  
العشرين كما رسمتها ريشة الفيلسوف المألوف :

نسي الخير حين أوغل في الشر فداَسَ الضميرَ في عصيانه  
ملأت قلبه الأفاعي فلا يُسمع غير الفحيح في خفقانه  
أعطي النطق والحجى ميزةً تفـرقه في الوجود عن حيوانه  
فإذا بالأذى وليد حجاهُ وإذا بالشرور بنتُ لسانه  
عاش في أرضه فحالت جحيماً فأتى الخلدَ عائثاً في جناه  
زجَّ بالعلم في الفضاء طيوراً من جمادٍ يديرها بينانه  
ما بناها إلا لهدم المباني ولسفك الدماء في طيرانه  
ليته لم يكن ذكياً فكل الـويل في الكون من نهى إنسانه



ولئن كانت مرثية « غير مجدي...! » إحدى روائع كيف المعرة أبي العلاء  
إن قصيدة « الشيخ الهائم » من أروع ما ضمخ به هذا الفياسوف الشاعر دولة الشعر  
العربي من قوافٍ مجنحة تفيض حسناً وتمور عاطفة ، وها هي ذي :

شيخُ هائمٌ... يرى الناسَ أشبا حاً على الأرضِ كلهم هائمينا  
(منهم من يرى الحياة شقاء! منهم من يرى الحياة فتونا)  
شيخٌ يكره النهارَ ويهوى الليلَ فالليلُ ماجأ اليأسينا  
هائمٌ... شاردٌ... على الأرضِ يبكيها ويبكي من فوقها يسرحونا  
ينظر الناسَ يكترون على الأر ض فيبكي لأنهم : يكترونا....  
يتمنى تقضَ الزواج من النا س فلا يجلون أو يلدونا  
تحملَ الطفلَ في حشاها شهوراً ثم تلقيه للعذابِ سنينا  
لا تكوني أصلَ البلاءِ لذلكِ الطفلِ يا أمَّ وارحميه جنينا  
أنتِ أدري بحسرةِ العيشِ إذ لا قيتِ من شقوةِ الحياةِ فنونا  
أيها السائرون في الأرضِ كبراً أتمُّ للردى بها سائرونا  
خففوا السيرَ فالتعجلِ يُدنيكم من القبرِ ، آه لو تعلمونا

إن كل الذي عليها ظلام في ظلامٍ عليه تحتبطونا  
والقصورُ التي بنيت على رملٍ فختامَ فوقه تبثونا ؟ !  
هل رأيتم ورد الرياض صباحاً فاتحاً للندى اللطيف جفونا  
ثم أبصرتموه تنثره الريحُ وتذريه أرجل العابرينا  
ورأيتم غصن الشباب نضيراً باسمًا زاهياً ، فما وعيونا  
ثم أبصرتموه تحت ترابٍ أرضٍ يحتال فوقه السائرون  
ألم كلهما الحياة فلا تُضحكُ ثغراً إلا لتبكي عيوننا !!!

ولفوزي بيتان من الشعر يعطيك في الأول صور الحياة المتشائمة في عربها  
وحقيقتها :

بين أوجاع أمه دخل المهـد وبين الأوجاع يدخل قبره

ويشن في الثاني غارة شعواء على الحياة حاسراً اللثام عن عالم فاجر . . . وخلق  
متاجر . . .

ليت عمرانه تأخر أجيا لأفكل الخراب في عمرانه

فالتشاؤم إذن أصل في روح فوزي لم يكن للطوارئ يد في تكييفه . فلقد دارجه منذ الطفولة ، ففتح عينيه في المهد . . . وأغلقهما في اللحد . . . !

شهدت في هذا الفصل ظاهرة التشاؤم بأسطة ظلها فوق منظوم فوزي ، وناشرة شعراها فوق ما خلف من صور شعرية وروائع فنية وآثار أدبية ! ومن كان شأنه وطابعه شأن وطابع هذا الهزار المنتحر . . . أياكون للحب ساطان على نفسه ؟ وللهوى الفضاخ . . . وسيالانه سيطرة على ميوله وأحاسيسه ؟

مفروض في كل من طبعه القدر بطابع التشاؤم والتطير أن يكون صادقاً عن المرأة . معرضاً عما تخلفه في النفس من آلام الهوى وتباريح الغرام . . . لسكنك سترى في حديثي هذا فوزي المتشائم صبباً . . . دنقاً قلبه الأ كفت على فراش من دموع وغرام . . .

من قرابة عشر سنوات دعاني صديقي الشاعر المرحوم إبراهيم طوقان للتحديث من محطة إذاعة القدس عن أمير شعراء العرب في ديار المهجر فوزي المعلوف ؛ فلبيت الدعوة واستويت وراء قرص الإذاعة مسهباً في الحديث عن هذا الشاعر ، وإذ بي في أول حديث ألقيه عنه فريسة التأثر البالغ . . . عندما وصلت بإنشادي إلى مقطوعة من الشعر يخاطب بها فوزي الحب ومنها :



الحب ! قفْ ياموتُ واشفقْ على قلمي ودعه لحظةً يخفقِ  
دع مقاتي تبكي قبيلَ النوى تبكي على الوردِ ، على الزنبقِ  
تبكي على روضِ غرامِ ذوى ما فيه من زاهٍ ومن ريقِ  
لي بغيةً قبل الردى ليبتها تمّت فلم آسفٌ ولم أفرقِ  
وتلك أن الملح محبوبتي فنحن بعد اليوم لن نلتقي

أقول : تولاني جزع هادم وأنا مستوي وراء قرص الإذاعة أردد هذه المقطوعة التي تنضح أبياتها بالألم والأسى ، وتتزيّ مقاطعها بالوجد والزفير ، ولم أذكر يوماً تأثرت فيه تأثري ساعة أن تذكرت فوزي شاباً وسيم القسرات ، مفعلاً حيوية وإشراقاً يودع هذا العالم الجاني دون أن يلمح محبوبته ويلقاها في جنبات « روض غرامه . . . » ، وتمنيت لو أن القدر الغشوم مدّ في عمره ، قبل أن يفوق إلى قلبه نبال غدره ، ويسدد إلى صدره سهام شره ، بل أرهف أذنيه إلى نداء فوزي وتوسله :

لي بغية قبل الردى ليبتها تمّت فلم آسفٌ ولم أفرقِ  
وتلك أن الملح محبوبتي فنحن بعد اليوم لن نلتقي . . .

أقول تمنيت لو أن القدر العاتي أصاح بسمعه إلى أمنية هذا العبقرى النافع  
وفسح في أجله لحظة ، ليأخذ القلب في وجيبه ، وليتسنى لصاحبه المحروب النفس  
أن يبكي على ورده وزنبقه ، ويبلل روض غرامه بالدمع المتون قبل أن تصوح  
معالمه وتذبل وروده وتخبو ألوانها الزاهية . . . !

تمنيت لو أن القدر العشوم لم يسطر بمنجل غدره على فوزي فأودى به إلى  
حياض الردى . . . وتمنيت لو فسح في كتاب أجله كما تسعد بيوم زفافه عين الفيلسوف  
المفجوع ، والوالدة الثكلى ، والشقيقتان الباكيتان ، وعصبة إخوانه المعجبين بذوب  
إنتاجه ومرهف روائحه .

لكن القدر الجاني سدّد ضربة غدر إلى قلب « شاعر الطيارة » فهوى من  
على جثة هامدة لا حراك فيها !

وقبل أن أمسح القلم من موضوع حب هذا الشاعر أثبت قصيدة عنوانها  
« ساعة البين » وقد نظمها في قرية « المريجات » اللبنانية عام ١٩١٦ ومنها :

رويداً قطار الشؤم حثام تلثوي      وتنجد في عرض البلاد وتهم  
مكانك لا تنقل عن (الخط) \* قطعة      ولا تتحرك إن ذلك أسلم  
سلبت التي كانت لقلبي نعمة      ونوراً لعيني تجتليه فتتم

\* سكة الحديد .

فدعها فمالي غيرها وهي ما لها  
وإلا تصادمنا ومثلي في الهوى  
فإن تحو من جيش الحديد عرمرماً  
وإن كانت النيرانُ فيك كثيرةً  
منعتك عن سيرٍ فإن تحطُ خطوةً  
له في لقا الأخطارِ عزمٌ وهمّةٌ  
سوايَ على أرض بها الحبُّ يحكمُ  
على كلِّ أنواعِ المخاطرِ يقدّمُ  
فلي من غرامي جيش عزمٍ عرمرمُ  
ففي أضلعي من نارٍ وجدي جهنمُ  
تجدني ليشاً في الهوى ليس يقحمُ  
ولكن لدى الأخطارِ قلبٌ مسلمُ

ولفوزي قصيدة بعنوان «أنين» تنضح مقاطعها بزفرات الحب الصادق البري من كل كافة أو ضعة ، وكما مرَّ شربطها في مخيلتي خشع القلب إجلالاً لذكرى شاعر نابغ لو عاش طويلاً لأفاض على الدنيا بشعر تخال الشعاع سداه والنسيم لحنه :

ألا فاكشفي عني الرداء وحدتي  
بصدري تربي ما لا ترى أعين الناس  
ضلوعٌ ولكن لا ويات من الجوى  
وقلبٌ ولكن كالمدامة في الكاس  
تحملها الأيامُ ما لا تطيقه  
وتسكبه الأشواق للشغف الحاسي  
ولا تلمسي جسمي فجسمي شعلةٌ  
من النارِ لاصدري سليمٌ ولا رأسي  
أخاف على وردٍ بخديك ناضرٍ  
من الموت إن هبت على الخدأ نفاسي



وأخشى على آسٍ بكفّيك زاهرٍ يشوّهه من مامسي الشائك القاسي

أنا الليل مسودّ الجوانح مرعبٌ وأنتِ على بعد المزاراة نبراسي  
أنا الحزن مرسومٌ، أنا السقم ظاهرٌ أنا الحب مصدودٌ أنا الألم الراسي  
أنا العابدُ العاني، أنا هيكل الهوى ألم تسمعي من أضلعي صوت أجراسٍ؟  
صلاتي أشعاري وإنجيلي الهوى ودمعي قرباني وذكراك قدّاسي  
بلغتُ إلى أقصى التعاسة في الجوى فختّام هذا الدهر يطلبُ إتعاسي؟  
فيالي من روج تعذبُ، ما جنى عليها سوى قلبي ورقة إحساسي  
وتالله لولا قوة لم تزل بها لأرديتها خنقاً بكفي من ياسي

واسمعهُ يمثلُ لك غرامه بلقيفة تنع :

... وألثمها لالئمة الوجد إنما لماماً ، كتقبيل الفراشة للورد

ثم يتخلص من هذا الوصف بأسلوب الحكيم مخاطباً محبوبه :

... أراك خيالاً في ضباب دخانها تغلغل من أحلامي البيض في برد

أرى فيه حيناً شكل عين جميلةٍ والمح حيناً فيه تكويرة النهدي

وله في وصف غادة حسناء رآها تبتعد يوماً في بحر بيروت قوله :

وقفت وحرَّ الشمسِ مضطرمٌ      ثقلي به الأجسامُ في جمرِ  
حوريةً في جفنها حورٌ      مكشوفةُ الساقين والنجرِ  
واصطفَّت الأمواجُ والهمةُ      لعناقِها ، مفتوحة الصدرِ  
فتغلغلتُ فيها تنقلُ من      صخرٍ إلى سطحٍ إلى قعرِ  
وكأنها - والماء كلاله      زبدٌ حيالٍ يياضها النضرِ -  
في الروض زنبقةٌ يحيط بها      ورق الربيع وباسم الزهرِ

ولقوزي مقطوعة في الوصف العاري أود أن تقرأها لتدرك عندها أن الشاعر ،  
مع إلمامه بالمادة ، كان محققاً يروحه عنها ؛ فهو يصف لك موقفاً يبعث الريبة في نفسك  
حتى إذا بلغ به الريب مداه . . . وقفك فجأة على تساميه ونقاء حبه :

للفتُ ذراعي حول خصر حبيبتي      كما التفَّ حول الصخر ، عاشقه النهرُ  
وكنا - وجسمانا لصيقان - واحداً      وصدر كلينا في اعتناقهما صدرُ  
وقبالتها والنفس مني مشوقةٌ      وما زلتُ حتى ذاب بالقبل النحرِ

وما هي إلا برهة فشى بنا      نعاس فتمنا نوم من ناله السكر  
 ولم نخش عما كان لومة لائم      فن حبنا العذري قام لنا عذر  
 وفوزي كذلك مقطوعة في هذا الباب بعنوان « لو » تنضح أبياتها وجداً  
 وأينناً :

لو يعلم الزهر حبيب الهوا	ما في فؤادي من جراح الهوى
لذوب البلم من عطيره	فيه      ليشفيني
ولو رأى البليل بين الغصون	نار ضلوعي في مياه الجفون
لحوّل المحزن من شعره	شداً      يسألني
ولو درى البدر عشيق النجوم	بما ألقى من فنون الهموم
لأهمل الشهب ومن قصره	أهوى      يؤاسيني
ولو درى الفجر بأبي أرق	من نسمة الفجر لطول الأرق
لبلل الأضلع من قطره	وراح      يبيكي

أ كاد أعتقد أن فوزي المألوف \* لم يمت إلا بضربة\* غدر أصابت قلبه في

\* محمود أبو الوفا ( المقتطف ٧٨ : ٣٧٤ مارس ١٩٣٠ )



مأمنه . . . « فقططمت نياطه ، وحسبك شاهداً قوله :

إيه يا نجمتي ، ألم تعرفيني : شاعراً يُنصتُ الدجى لنواحيه ؟  
كم ليالٍ في الروض أحيتها أبـكي وأشكو إليك بين أقاحه  
سامح الله فيك قلباً نسيّاً هو في الكونِ مثل قلب ملاحه

قضى الشاعر المجدد فوزي المعلوف نحبه في سهول البرازيل الممرعة ، بعيداً عن  
( البردوني ) الهادر والصفصاف الباكي ، وكل ما في الوادي الساحر من معانٍ  
وفتون . وتقديراً لنبوغ هذا العبقرى الخالد نحت مهاجرو العرب في البرازيل  
تمثالاً نصفياً للفقيد من البرونز مع قاعدة جميلة من رخام الجرانيت الإيطالي ،  
بلغت زنتهما ٧٥٠٠ كيلوغرام ، وقد حملته إلى بيروت صباح يوم الثلاثاء الواقع في  
٣ تموز ( يوليو ) ١٩٣٧ الباخرة « بالستينيا » وجيء به إلى زحلة لينصب في حديقة  
المجلس البلدي .

ومساء يوم ١٢ أيلول ( سبتمبر ) ١٩٣٧ أزيح الستار عن التمثال بمهرجان حافل  
أمته أدباء سوريا ولبنان وتكلم فيه خطباء بارزون . وفي ذلك الحفل قلّد وزير

داخلية لبنان الأستاذ حبيب أبو شهلا « الظل المتحجر » وسام الاستحقاق اللبناني  
المذهب الأول . وقد ختم الحفلة شفيق الملعوف بكلمة رقيقة بليغة جاء منها :

« فوزي ! ومالي في الخطوب يدان ما هكذا الأخوان يلتقيان  
قرّبتُ صدري للعناق فلم أقع إلا على قطع من الصّوان  
نصبُ خفضتُ له الجفون كأنما نصبت حجارته على أجفاني

أيها البردوني ! لقد عاد إليك الشاعر الفياض بروحه ، فقف تهيّبا لرمز الخلود !  
أنت الآن في أمان بين صنين وحرمون والتمثال ، ثلاثة جبابرة من جبابرة الجاد  
الناطق بالكرامة والسؤدد والحسن والجمال !

قد تشور البراكين ، وتهتز الجبال وتسمي دخانا ، ولكن التمثال خالد على الزمان .  
قد تنكسف الشمس وينخسف القمر ، ولكن روح الشاعر تنير كل الأجيال .

مات سليمان ! ولكن أناشيده ترددتها هياكل الدنيا !

مات داوود ! ولكن قيثاره داوود حية في قلب العالم !

وهنا ! هنا يا فوزي ترقد روحك كما أحببت واشتيت !

تنتحي عالم الخلود لتحيا حرّة بين روضه وغديره

هنا . . . ولأول ليلة سترقد على أنعام طيور الغاب . . . أولست القائل يوم  
لامست طيارتك الطير في سماء سانبولو :

لا تخافي يا طيرُ ما أنا إلا شاعرٌ تطرب الطيورُ لشعره  
زارك اليومَ متعباً ينشد الراحة في هدأة السكون وسحره

. . .

هشَّت لك الأزمانُ قبل ولادها فاخلعُ زماناً وآشخُ بزمان  
لله نصيبك فهو أخلدُ برده في الأرض ينسجها الخلودُ الثاني  
فوزي ! أحببت أمتك فأحبتك !

وأخلصت لوطنك ففتح لك ذراعيه وقلبه !

فاجتم جثمتك الأبدية على ضفة نهر زحلة والخلود ملقى على قدميك !

وأقم يا أخا الروح حيث يكلل جبينك الطل ، ويقبل قدميك الظل !

فما النهر الهادر ، والصفصاف الباكي ، وكل ما في الوادي الساحر من فنون وجمال

غير قصائد خالدة في كتاب حياتك الخالد !



فانعم يا فوزي بهذا الخلود ، يتوج نصيبك ! كليل من الغار تحت كل ورقة من  
ورقاته عاطفة تحمل أو عاصفة تتكلم !

أيها المحتفلون بفوزي !

ها هو فوزي أمامكم كما عرفتموه ، وشئتم أن تعرفوا به الأجيال القادمة !

ها هو يطل عليكم شاكراً حامداً . أما نحن أهله فيعيينا معكم الشكر !

لأن فوزي الخالد صنعة\* الله وظل فوزي المتحجر صنعتكم

فما أبعدا نحن عنه ! وما أقربكم أنتم إليه !

أما أنت يا فوزي ، وقد زفقت إلى وطنك بموكب من هذه القلوب النبيلة وفي هالة

من هذا الشعور القومي الشريف ،

فغش لأمتك بعد الموت كما كنت لها في الحياة ! شامخ الأنف ! مرفوع الجبين !

مردداً مع الزمان على مسمع كل عابر آيتك الرائعة :

إيه يا موتُ لن تمسَّ خلودي فاقض ما شئت لست وحدك تقضي !»

\* كان في عداد من تكلم في حفلة نصب التمثال رعييل لب من أدباء سوريا ولبنان تذكر منهم ،  
الأساتذة الأدياء : المرحوم فيلكس فارس ، والشيخ إبراهيم المنذر ، ونجيب ليلان ، و خليل تقي الدين ،  
والدكتور نجيب فرج ، والياس أباشبكا ، وإسماعيل خير ، وشبل وحليم دموس ، وشكري بخاش صاحب  
( زحلة الفتاة ) وعبد الله حلاق صاحب مجلة ( الضاد ) الحلبية ؛ وقد ألقى معلقة مطولة من عيون  
الشعر كان مطلعها :

جارة الوادي وأرض العنب حن فوزي لترك الطيب

حن للوادي الذي لفنه سور الوحي وآي الأدب

## على بساط الرّيح

درس وتحليل

« بساط الرّيح » اسم لبساط زعمت الأساطير الشرقية أن السحرة تمتطيه في غدوها ورواحها ومما رواه صاحب « نفع الطيب » من ذكاء أهل الأندلس في استخراج العلوم واستنباطها ، أن أبا القاسم عباس بن فرناس حكيم الأندلس ، قد احتال يوماً في تطيير جثمانه فكسا نفسه بالريش ومدّ له جناحين ، طاراً في الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتياط في وقوعه فتأذى مؤخره وفي هذا قال الشاعر :

يطم على العنقاء في طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريح قشعم !

\*\*\*

في أوائل شهر أيار ( مايو ) ١٩٢٦ امتطى فوزي المعلوف طيارة كانت جاثمة على شواطئ « كواروجا - ريودي جنيرو » ، ولما صار في الفضاء على علو شاهق : أنزلته فيه عروس قوافيه بعيداً عن الوجود وظلمة صارباً في الفضاء موكبه النور وأتباعه عرائس حامية

وهاجت بلابل صدره ونحركت فيه نوازع خفيّة أوحث إليه ابتداع ملحمة  
« على بساط الريح » أو « شاعر في طيارة » فجاءت مذهبة خريدة جمعت إلى  
رقّة الأندلس فلسفة الهند وحكمة اليونان وروح العرب ؛ فارتقى « شاعر الطيارة »  
بالنفوس إلى الملاء العلوي . . . إلى ما وراء الأفق . . . حيث جال في ربيع اللانهاية ،  
وتغنى بأناشيد الأربعة عشر مترماً بحال الشرق وروعة جلاله . . . وحلّق فوق  
الأرض تخليق من تعود ارتياد الفضاء الأوسع ، محمولاً على جناحين اصطناعيين  
يخيل إليك أنهما جناحا الريح ، ذلك الطائر العجيب الذي ذكرته الأساطير الشرقية .  
ولما هبط بطيارته إلى الأرض نظم ملحمة طبعت بلغات شتى ، وازدانت فصولها  
بصور ملونة ورموز بديعة .

وقبل أن أحدثك عن هذا الأثر الشرقي المانع ، والدخول بك إلى قدس أقداسه  
أسرد تالياً أسماء من سحرنا بهذه التحفة الشرقية فترجموها إلى لغاتهم الحية :

١ — أمير شعراء الإسبان ، المرحوم فرانسيسكو فيلاسباسا ، صديق فوزي ،  
فقد ترجم « على بساط الريح » شعراً إلى اللغة الإسبانية مع مقدمة مطولة حلّل فيها  
الشاعر وآدابه ، وطبع كتابه عنها مصوراً في البرازيل عام ١٩٣٠ ، وترجم المقدمة  
إلى العربية الشاعر النابه شفيق المعلوف وصدر بها الطبعة العربية .

٢ — أمير شعراء البرتغال ، فنتور لي سوبرينو ، صديق فوزي ، فقد ترجمها



شعراً إلى البرتغالية مع مقدمة فيلاسباسا وطبعها عام ١٩٣٠ مزدانة بالرسوم على غرار  
الطبعتين العربية والإسبانية .

٣ — المستشرق الإنجليزي جورج كفت ، الموظف في المتحف البريطاني بلندن ،  
فقد ترجمها إلى الإنجليزية بعد أن استأذن بذلك والد الناظم .

٤ — السيد أسعد محفل ، قنصل سورية في القاهرة والحلي الأصل ، فقد  
ترجمها إلى الفرنسية .

٥ — المستشرق الألماني الدكتور . ج . كبنفاير ، فقد ترجمها إلى الألمانية ونشرها  
تباعاً في مجلته « معرض الأفكار الشرقية » التي كان يصدرها باللغتين  
العربية والألمانية .

٦ — المستشرق الروسي كروتشكوفسكي ، فقد ترجمها إلى الروسية مع قصائد  
أخرى للفقيد .

٧ — السيد أميل مرقده ، نزيل بخارست والدمشقي الأصل ، فقد ترجمها  
إلى الرومانية .

٨ — الدكتور فانز عون ، نزيل باريس والزحلي الأصل ، فقد ترجمها إلى  
الفرنسية مع كثير من أشعار فوزي وطبعها عام ١٩٣٨ أطروحة نال عليها شهادة  
الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، وقد ملأت ترجمته كتاباً في مائتي صفحة  
أبدع فيها الدكتور عون بوصف أخلاق شاعر الوحي والإلهام وتحليل آرائه ونشره

آثاره ؛ فقابلت صحافة باريس عمل الدكتور عون الجليل بالمدح العطر والثناء المستطاب  
٩ — الدكتور فؤاد عقل ، اللبناني الأصل وتزيتل بروكلن ، فقد نقلها إلى  
الإنجليزية مع بعض أشعار عمر الخيام الشاعر الفارسي .  
١٠ — السيدة أفلين بسترس ، البيروتية الأصل ، فقد ترجمت ملحمة «الطيارة»  
إلى الفرنسية ونشرتها عام ١٩٣٨ في الجزء الخامس من مجلتها «فينيقية» التي كانت  
تصدر في بيروت باللغة الفرنسية .

١١ — السيد فوزي سعيد ، بيروت ، فقد ترجمها إلى الفرنسية .

١٢ — وذكرت مجلة «الهلل» في الصفحة — ٥٩٧ من المجلد — ٤٦ عام ١٩٣٨  
مانصه : « نشرت مجلة «ألمانيا» التي تصدر في باريس خبراً مؤداه أن أحد الناشرين  
في برلين قد طبع مجموعة أشعار العربي المشهور فوزي المعلوف ، ونقل هذه المجموعة  
إلى اللغة الألمانية بدقة تامة ، وستظهر في مستهل العام الجديد » . اهـ

جاءت ملحمة «على بساط الريح» في أربعة عشر نشيداً مصدرة بمقدمة لشاعر  
الإسبان المرحوم فيلاسباسا ، وقد احتواها مجلد قل أن تقع العين على مثله رونقاً  
وبهاء ، فهو تحفة من تحف الطباعة المصرية وقلادة غالية ، من قلاند أنفاس «شاعر  
البردوني» . وما كاد الناشر يخرجونه إلى عالم النور حتى تسابق الرسامون إلى  
توشيته بالرسوم الرمزية المتعددة ، وتنافسوا في إبراز معانيه السامية بالريشة الملونة .

هذا ما فعله الرسامان « إيجنا توفتش » الروسي و « سيت » البرازيلي اللذان تقاسما الملحمة وأناشيدها فوق الأول رموز العناوين ورسم الثاني رموز الأناشيد .

لقد ترجمت مقدمة فيلاسبا للملحمة إلى العربية ترجمة متقنة ، وسبكت سبكاً لطيفاً يكاد يضارع النص الإسباني . وقين بالمتأدبين وحملة الأقلام في دولة الأدب العربي أن يأخذوا تلك المقدمة وينقشوها « معلقة » يزبنون بها جيد الأدب ، ووساماً يعلقونه فوق صدور المبرزين منهم ؛ لأنها أشادة بأعجاد العرب لم يشدها حتى أخلص غلاتهم ، ونشيد في الروح العربية والبيان العربي لم يترنم شادٍ بأجمل وأصدق منه . شاعر ! في التاسعة والعشرين من عمره تضيق الأرض عن احتواء آماله وطموحه ، وتمزق نفسه عما يرى من فساد البشرية وانحطاط الدنيا التي يراها غير جديرة بأن تكون موطناً للشاعر الذي جاءها مُكرهاً لا بطلاً :

ليت شعري ! ما للشاعر ابن لهدي إلا بلحمه وبعظمه  
وتلمس الكآبة شائعة في كل جانب من جوانب نفسه ؛ حتى في ساعات مرحه  
ومجالس أنسه لا يجد غير بؤس وكآبة يحفان به من كل صوب ، فكان من العالم  
يأنساً . . . ومن الناس متطيراً . . . ومن الدنيا برماً . . .

ألف اليأس قلبه ، فهو والياً سُ يحاكي بثينةً وجميلاً  
وإذا اليأسُ صدَّ عنه قليلاً راح يبكي على نواه طويلاً



كان المعلوم شديد النعمة على ما في السكون من موبقات ومبازل ، وعلى  
ما كمن في نفوس الناس من شيم الظلم والعدوان ، وهو في كل نشيد من  
أناشيدته يفتكر للناس... ويندد بهم... ويشد عليهم بقاحم من الزجر والتأنيب...

هو مخلوق عالمٍ اسمه الأر ض يغطي الشقاء كل بطاحة  
عالمٍ ما شعاره غير أن الحق للقوة التي في سلاحه

وإذا قرأت أنشودة «العبد!» عرفت نزوة نفسه الثائرة على التقاليد المحنطة ومفاسد  
المدنية الحاضرة، وعلى كل هذه التلاوين التي يوشون بها الشرور والآثام، وتراه يصور  
لك «الإنسان!» ، الإنسان الذي يدعي الحرية ، عبداً للحياة ، عبداً لما ضمت  
الشرائع من جور ، عبداً للقضاء ، عبداً لمدنية تلهو بالقشور... عبداً للعالم ولاسمه  
ولجسمه... فتري هذا المخلوق الآدمي متسكماً في ظلام العبودية... مكبلاً بأغلالها...  
لا يطيق منها انفكاكاً!

وحرصاً مني على أن تمتع الطرف بمعلقة فواحة الشذا ، منتقاة اللفظ ، عوّاتُ  
على إثبات أناشيد «على بساط الريح» في آخر فصول هذا الكتاب لئيتاح للكثيرين  
من المتأدين الاستمتاع بقصيدة هي وليدة القرن العشرين .

وكأنما هي كما يتبادر لفيلاسباسا في مقدمته الأنف ذكرها : « من قلم أولئك  
الشعراء العظام الذين كانوا منذ أجيال زهواً وفخراً لكل بلاط في بغداد ودمشق

وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ، أولئك الشعراء الذين كانوا إذا كتبوا كأنما يغمسون  
أقلامهم في حبر الخلود .

لقد عمّد الشاعر الفنان إلى تقسيم ملحتمه إلى عدة أناشيد متنوعة القوافي ، متدرجاً  
فيها من حلم بملك في الهواء ، إلى تحليل نفسية الشاعر ، إلى تحقيق حلمه ، إلى وصف  
تجوّاله الهوائي ، إلى خواطره في أثناء طيرانه ، وأجملها مفاجأة الأرواح له . وأخيراً  
عودته إلى أمه الأرض . . . . . ولقد أحسنَ باستهلاله كل نشيد بيتين رشيقيين  
ضمنهما صفوة النشيد ، وكأني بالشاعر ، لتغلّقه في فهم الحياة ، أصبح غريباً عن  
الحياة ، والإنسان في نظر عبقريته محكوم عليه أن يعيش عبد الحياة لا يتحرر من  
أحد قيودها إلا ليقع في قيد أنكي ؛ فهو لا ينفك يُعيد في إنشاده :

بين روحي وبين جسمي الأسير	كان بعدُ - ذقت مُرّة
أنا في الأرض... وهي فوق الأثير	أنا عبدٌ - وهي حُرّة
أنا عبدُ الحياةِ والموتِ أمشي	مكرهاً من مهودها لقبورِ
عبدٌ ما ضمت الشرائع من جو	رٍ يخطّ القويّ كل سطورِ
عبدٌ عصرٍ من التمدّن نلهو	ضِلّةً عن لُبابه بقشورِ
عبدٌ إسمي ذوّبت روحي وجسمي	طمعاً في خلوده ونُشورِ

عبدٌ مالي أحظى به بعد جهدٍ فإذا بي أنوء من ثقل نيره  
أنا في قبضة العبودية العمياء أعمى مسيرٍ بغيره  
إن جسمي عبدٌ لعقلي ، وعقلي عبدٌ قلبي ، والقلب عبدٌ شعوره  
تري أن شاعرية فوزي العبقرى قد سلطت إشعاعها الهادئ الجبار على الحياة  
تسليطاً دقيقاً ؛ فإذا الحياة على رحبها ليست منسمة له ، فهو من هذه الدنيا في «دنيا !»  
لا يملك فيها من ضروب التسلية إلا أن يهتف :

ليت شعري ما الشاعر ابن لهذي إلا أرضٍ إلا باحمه وبمظية  
هو منها وليس منها فما زل غريباً ما بين أبناء أمته  
وكأنني بهذا الشاعر ، في ضوء نظرتة للحياة ، قد لمح لأول مرة موطن بروحه الذي  
أنزلته فيه عروس قوافيه ، بعيداً عن الوجود وظلمه . . . أو على الأصح ، عرف الموطن  
اللائق بروحه وهو محلق :

« في عُبابِ الفضاء فوق غيومه فوق نسره — ونجمته  
حيث بثّ الهوى بثغر نسيمة كل عطره — ورقته  
موطن الشاعر المحلق منذ الببد لكن بروحه لا يجسمة  
أنزلته فيه عروس قوافيه بعيداً عن الوجود وظلمه



واستوى فوزي على غارب بساطه ... وها هو ذا نشوان في حُله المانع الجميل  
يُطلق العنان لجواد الأثير متغنياً بهذا النشيد :

بين روحي وبين جسمي الأسير      كان بعددٌ - ذقتُ مُرَّة  
أنا في الأرض ... وهي فوق الأثير      أنا عبدٌ - وهي حُرَّة

وها هو ذا « شاعر الطيارة » نشوان في نزهته العلوية المغبوظة يُطلق العنان لمركبه  
الهوائي منشداً :

يا طيورَ السماء في الريحِ روحي      بيَ جرياً - على الجُلْدِ  
ويجسمي طيري إلى حيثِ روحي      فيه تحيا - بلا جَسَدِ

وتُلي طيارة الشاعر سؤله فتندفع في الفضاء :

خبياً تارة ، وطوراً وئيداً      صُعدا مرَّةً وأخرى نزولا

وتروح « طيارة » فوزي تندفع في تحليقها وإذ :

قال نَسْرُه لآخرٍ : أيُّ طيرٍ      هو هذا - ومن رفاقه ؟  
إن يكن قادمًا إلينا خير !      فلماذا - علا زُعاقه ؟  
يا له طائرًا بصورة شيطا      نِ يبتُ اللهبَ بركانُ صدره  
أهو منا ؟ لا ، لا ، فلم أرَ جبًا      رآ كهذا في الجوما بين طيرة

وإذ جميع الطيور يجتمعن ويسألن بذعر ورعدة... عن « الطائر الأرضي الضخم ! » الذي تجرأ في وقاحة على تخطي حدود مملكتهن المقدسة ، وحين يعلمن أنه « الإنسان ! » يستعذن بالله من شره وشر استعماره ، ويقررن الحرب والاستيلاء في الدفاع والقتال ، وتنشب المعركة التي يصف الشاعر هولها :

رَدَدْتُ فِي الْأَثِيرِ صَيْحَةَ حَرْبٍ مَلَأَتْهُ بِنَسْرِهِ وَبِصَقْرِهِ  
وَإِذَا بِي مَا بَيْنَ أَجْنَحَةِ سُوِّ دِ عَلَى الْأَفْقِ ، حَجَبَتْ وَجْهَ بَدْرِهِ  
طَوَّقْتَنِي بِكُلِّ فَاغْرِ شَدَقٍ صَامِدٍ لِي بِمَخْلِيهِ وَظَفْرِهِ

ولكن شاعرنا الشاب يمقت الحرب كل المقت ، ولا يمجّد انتصار القوة المادية ؛ لذلك راح يحاول إقناع أسراب الطير أنه لم يجبي مستعمراً وليس هو إلا شاعراً يائساً هارباً من الأرض ولانداً بالجو ليستحم جسمه بنوره :

لَا تَخَافِي يَا طَيْرُ مَا أَنَا إِلَّا شَاعِرٌ تَطْرَبُ الطُّيُورُ لَشِعْرِهِ  
زَارِكُ الْيَوْمَ مَتَعْبًا يُنْشِدُ الرَّاحَةَ فِي هِدَاةِ السَّكُونِ وَسِحْرِهِ  
فَرَّ عَنْ أَرْضِهِ فَرَارِكُ عَنْهَا مِنْ أَذَى أَهْلِهَا وَتَنْكِيلِ دَهْرِهِ

أَلْفَ الْيَأْسِ قَلْبُهُ ، فَهَوَّ وَالْيَأْسُ سُبْحَانِي يَا بَيْتِنَةَ وَجِيلًا

وإذا اليأسُ صدَّ عنه قليلاً راح يبكي على نواهٍ طويلاً  
عند هذا الإنشاد والعتاب... تهدياً نائمة الطير وتطمئن على حربتها فتهبُّ الشاعر  
« فيزا... » للسير في مملكتها فينطلق الشاعر حرّاً في طبقات الجو لا يكاد يستقر  
بينهنّ في سماءٍ إلا ليطلع على سماء... حتى صار قرب النجوم :

وانبرتْ نجمةٌ لأخرى تقولُ: من يحوم — من البعيد ؟  
أهو نجمٌ مذنبٌ ؟ أم دخيلٌ ؟ في النجوم — وما يريد ؟  
وإذا نجمةٌ تجيب : وقاك — بعد أختي شر انطلاق جناحِهُ  
هو تحت السديمِ أعجز عن أن يبلغ النجمَ فوق متن رياحِهُ  
لا تخافي منه وخليّه يعلو فقريباً يهوي صريع كفاحِهُ

وسرعان ما هبَّ « شاعر الطيارة » إلى إزالة المخاوف وتبديد المواجس بقوله :

إيه يا نجمتي ألم تعرفيني شاعراً ينصت الدجى لنواحيهِ  
كم ليالٍ في الروضِ أحبيتها أبكي وأشكو إليك بين أقاحِهِ  
سامحَ الله فيك قلباً نسيّاً هو في الكون مثل قلب ملاحِهِ

ولما علّت الطيارة طبقات متصاعدة ، وأوغل « النسر » في تحليه ، رأى في الجو



حشدًا من الأرواح وأسمعه خياله حديث هذه الجماعة فاستراح إليها :

وسرى في عوالم الأرواح من قدومي - شبه همس  
إذ تنسمن من خفوق جناحي في السديم - ريح أنس  
فتأبى حول جسمي جماعا تملأن الجو الفسيح دويًا  
وإذا بي أعى هنالك أشياء ولما حدقتُ لم أرَ شيًا  
فكأنني في الحلم نشوان صاح تتوالى رؤى الخيال عليًا...  
طوّقتني الأشباح، هاهي حامت ثم أهوت ترف بين يديًا  
إنها كاللهات نفحًا ولفحًا وكوج الشعاع نشرًا وطبًا  
هي كالوهم ألبسته خيوط الفكر ثوبًا من الخيال جليًا  
لم يزل صوئها إلى اليوم في أذني ، وأنفاسها على شفطيًا  
إنما عند وصفها خاني الفكر وألقى على بياني عيًا  
يا له عالمًا هناك بعيدًا قرّبته عروس شعري إليًا  
فتنبهت من ذهولي وأصغيت لبلي أجلو هناك خفيًا  
فسمعت الذي (توشوشه) الأرواح عني وما تفكر فيًا

وقفت عند هذه (الوشوشة) . . . وهذه الأبيات . . . حائراً أسائل نفسي :  
أشاعر عربي ناظمها ؟ أم شاعر من الغرب ؟ وإذا كانت « الطيارة » من وحي أبناء  
الغرب . . . ومن صنعهم . . . فهل استطاع شعراؤهم أن يصفوها أحسن مما وصفها  
شاعرنا الملهم الذي نبكيه ! حسبنا هذه الملحمة الفواحة العبير حجة تفرع بها من  
يرمي العربية بالقصور عن الوصف ومجازاة المدنية الحاضرة !

تلوت مرة على مسمع شيخ أدباء فلسطين الأستاذ خليل السكاكيني نماذج من  
ملحمة « الطيارة » فصاح من فرط إعجابه وزهوه : « ما أخرى هذه الأبيات أن  
تقابل في عصرنا الحاضر بالسجدة الشعرية التي كان العرب القدماء يقابلون بها الشعر  
الجيد البليغ ، بل ما كان من حق ملحمة المعلوف النابغ أن تضاف إلى (المعلقات العشر)  
مكتوبة بماء الذهب لو أدركت الجاهلية . . . ! » .

ولا يفوتني ، وقد شارفت النهاية من حديثي عن فوزي ، الإلماع إلى ناحية هامة  
من نواحي هذا المادام . . . المجدد . . . أعني بها ناحية — التصوير الفني — الشائعة  
في شعره . واثن كان للتصوير أدل أنواع الشعر على مقدرة الشاعر وفنه وقوة خياله  
إن هذا النوع لأفضل مقياس للشاعرية الخصبية . وكثيرون من الشعراء النوايغ  
وقفوا بأقوالهم ومثلوا بأقلامهم صوراً شعرية يعجز أمهر الرسامين عن إبرازها بالأصباغ  
وأنواع الطلاء . وهذا التمثيل الموفق بعض ما يجعل الشعر مقدماً على سواه من الفنون .

كان فوزي دقيقاً في تصوير ما تقع عليه عيناه ، فإذا عرضت له صورة  
عالجها بقلمه وعاجلها بعدسة خياله ، فتخرج للناس وثابة الحركة ، دفاقة الحيوية  
والنشاط ، وتنب إلى الذهن وثباً من وراء الحروف والنقاط . . . فاسمعه يصف لك  
الطيارة التي امتطأها في زهته الجوية من ساحل « كواروجا » :

هي طيرٌ من الجماد كأن الـجـنَّ في صدرها تحثَّ خيولا  
تَحَمَّتْ تضرب الرياح بنعليها فشقت إلى السماء سبيلا  
ثم مدّت إلى النجوم جناحيها—نـوجرت على السحاب ذيولا  
غرقت في الأصيل حيناً وعامت بعد حين تلعو قليلاً قليلا  
ترتدي من دخانها بردة الـليـل وتلقي عن منكبيها الأصيل  
وعليها من الشرار نجوم عقدت حول رأسها إكليلا

وإذ أوقف مشبوب الإعجاب والذهول أمام هذه الصورة التي رسمتها ريشة  
فوزي للطيارة ، أعود بك إلى صفحات سبقت هذا الفصل فنقف أمام قصيدة  
« غرناطة . . . ! » التي طالعتك بها لتلو بيتين منها يصوران لك جارية بارعة  
الرقص . . . من أولئك القائنات اللاتي جاء وصفهن الخلاب في كتاب « ألف ليلة  
وليلة » وقد نسجت قدماها العاريتان البضتان رقصات شرقية كلها سحر وإغواء ،



بحاكي نقوش الطنافس الشرقية الموشاة بأزهى الخيوط وأبداع الأصباغ :

إذ الجواري خاطراتٌ على سجادة ، جارية جارية

أروعُ ما في الشرق من رقصه تنسجه أقدامها العارية

أهكذا أوحى الفن إلى فوزي الفنان صورة الطيارة التي امتطأها في زهته  
الجوية المانعة ، وعند هبوطه من عالم الأرواح والوشوشات . . . . رسم بريشته  
هذه الصورة الدقيقة الناطقة . ثم اسمه يمثل لك غرامه بدخينة تبغ وطريقته  
في تدخينها :

... وألثمها لا لثمة الوجد ، إنما لماماً ، كتقبيل الفراشة للورد

ويقول بعد ذلك مخاطباً حبيبته :

... أراك خيالاً في ضباب دخانها تغلغل من أحلامي البيض في بُرد

أرى فيه حيناً : شكل عين جميلة وألمح حيناً فيه تكويرة النهدي

لما تُو في اللورد « كارنارفون » مكتشف قبر « توت عنخ آمون » في مصر

رثاه أمير الشعراء الغنور له أحمد شوقي بك بقصيدة رائعة .

وحملت الصحف مرثاة شوقي إلى المرحوم فوزي وهو مقيم في البرازيل فعارضها

بقصيدة مطلعها :

لا القبرُ مسحورٌ ولا في بابه رَصْدٌ يذودُ هناك عن أصحابه

ومنها :

أيهانُ فرعونُ الكبيرُ بقبره وهو العزيزُ بملكه وجنابه ؟  
أفا رأيت أمامه وحيالهُ حرسَ البلاطِ مدججاً بحرايه  
هو صامتٌ لكنه في صمته أقوى وأبلغ منه في إعرابه  
أعيا الفناء فلم ينله ولم يزل متألقَ اللعانِ نورِ إهابه  
الروح هائمةٌ على تابوته والجسمُ رطبُ العودِ في جلبابه  
فترى اللظى متنفساً بطعامه وترى الحبابَ مشعشعاً بشرايه

ولما وقع نظر شاعر الأقطار العربية خليل بك مطران على القصيدة قال : لسكان

فوزي في « وادي الملوك ! »

ومن هنا يبدو لك السمو والتحليق اللذان باغهما فوزي في وصفه مقبرة

« وادي الملوك »

\*\*\*

ومن آثار فوزي الشعرية التي تستهويك مبنى ومعنى قصيدة « الفغاز المفقود »

وهي هذه :

بمرت به في الأرضِ والثليجُ باسطُ  
وقد بثَّ فيه البردُ والثليجُ رعشةً  
فساءلته عمن رماه فلم يجز  
تضوع منه في خلال نعومة  
فلم يبقَ من ريبٍ بأن التي رمتُ  
فيالك قفازاً طريحاً على الثرى  
نعمتَ يمينها وكم لك قبلة  
وكم مرّةً منّتَ عليك بزفرةٍ  
إلى أن قضى بالبعد دهري عليكما  
ولكن عزاءً عن يياضِ يمينها  
ويهنيك ثليجٌ عذبتك بيرده  
لئن صحَّ حسابي وكنت لغادةٍ  
وإن كنتَ يا قفازُ ملك فتى فيا

عليه جناحيه النقيين كالطهر  
« كما انتفض العصفورُ بللًا بالقطرِ »  
جواباً، بلى كان الجوابُ شذى العطرِ  
ونعمةً نمتُ على ذلك السرِّ  
به (غادة) أو ضاعَ منها ولم تدرِ  
يعاني عذابَ البردِ والذلِّ والهجرِ  
على الثغرِ منها والغداثِ والصدرِ  
وكم مسحتُ دمعاً على خدّها يجري  
فلا حيلةٌ فيما قضتُ حكمةَ الدهرِ  
بثليجٍ حكاها بالبياضِ وبالنشرِ  
فكم عذبتُ قلبَ المحبِّ على جمرِ  
فيا سمعَ حظي منك باللمسِ والذكرِ  
ضياعَ الذي أنشدتَ فيك، من الشعرِ



أية صورة من صور فوزي الشعرية ، بل أية لوحة من لوحاته الفنية لا تنبض بالحركة ... وتتميز بالوثب والحيوية ... ؟ بل أية ملحمة من ملاحمه لا تفيض بالوصف المهنف ! وقد خلع عليها فوزي من خياله السامي غلالة أنيقة لماعة زاهية التلاوين ؟

شعره حكمةٌ وصدقٌ خيالٍ وجمالٌ وروعةٌ ورسائنه

أتمنى لو كانت لي عبقرية ديموستين وشيشرون وروعة بيانهم لأفي هذا الشاعر الملهم بعض حقه على الشعر العربي المعاصر ، من الوصف والتصوير ، حتى أترك في نفسك أسمى فكرة عن شاعر صوّب الزمان الغادر إلى صدره من كنانة بطشه سهماً مريشاً فهوى « النسر » إلى الخضيض مهبض الجناح ، دامي الجراح ، شهيد الكفاح ... !

# على بساط الرّيح

ملحمة ذات أربعة عشر نشيداً

النشيد الأول

ملك في الهواء

في عبابِ الفضاءِ فوقِ غيومه

فوقِ نسره

ونجمته

حيث بثَّ الهوى بشعرِ نسيمه

كلَّ عطره

ورقتيه

\*\*\*

موطنُ الشاعرِ المخلِّقِ - منذُ

البدءِ لكنْ بروحه لا يجسِّمه

أنزلتهُ فيه عروسُ قوافيه

بعيداً عن الوجودِ وظلمه



ملكُ قبةِ السماءِ له قصرٌ  
وقلبُ الأثيرِ مسرحُ حكمةِ

ضاربٌ في الفضاءِ موكبهُ النورِ  
وأتباعُهُ عرائسُ حلمةِ

ملكهُ ركنهُ الهواءِ وما أقواه  
ركننا قامَ الخلودُ بدعِمِهِ

عرشُهُ سدةُ السحابِ عليها  
نفضَ الليلُ كلَّ رهبةِ رشمِهِ

تاجُهُ هالةٌ ينضدُ في فضتها  
الأفقُ بدرُهُ قربَ نجمةِ

والدجى طيلسانُهُ فاحِ كافورِ  
دراريهِ فوقَ عنبرِ خمِةِ

والثريّا في كفه صولجان  
دره لته الصباخ بكمه

ملك طائر بغير جناحين  
بأمر الخيال يقضي وباسمه

يا جناح الخيال أقوى جناح  
أنت يلوى ظهر الرياح لصدمة

ليت شعري ما الشاعر ابن لهذي  
الأرض إلا بلحمه وبعظمه

فإذا اختار هجرها برضاه  
أفما جاءها مقوداً برغمة

هو منها وليس منها فما زال  
غريباً ما بين أبناء أمه

النشيد الثاني

رُوحِ الشَّاعِرِ



أَيُّ رُوحٍ فِي بَرْدَةِ الشَّعْرَاءِ

رَفَعْتَهُمْ

عَلَى الْمَسْوَءِ

أَبَدْتَهُمْ عَنِ عَالَمِ الْأَحْيَاءِ

قَرَّبْتَهُمْ

مِنَ السَّمَاءِ

\*\*\*

أَنْتِ يَا رُوحَهُمْ مِنَ النُّورِ ذَرَّاتٌ

أَضَاءٌ فِي الْكَوْنِ فِي عَالَمِيهِ

تَصِلُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ بِنَهْرٍ

عَمَرَ الْحَسَنُ وَالْهُوَى صَفْتِيهِ

لست من عالم التراب وإن كنت  
تقمّصت بالتراب عليه

أنت من عالم بعيد عن الأرض  
يفيض الجلال عن جانبيه

نسمة الشعر أنت فيه تبشّين  
أريج الشعور في بردته

هو فردوسك السحيق فلا الإثم  
ولا الشرُّ يلبغان إليه

وفتي الشعر فيه يستنزل الوحي  
ياناً يحنو الخلود لديه

حافرًا باللظى على مصحف  
الأفق سطورًا تنير في دفتيه

ما احمرارُ الأصيلِ غيرُ لهيبِ  
شعٍ من قلبه على مقلتيه

وركامُ السحابِ غيرُ دخانِ  
نقشتهُ الهمومُ من شفتيه

ما أنينُ الرياحِ غيرُ زفيرِ  
زرعتهُ الرياحُ من رثتيه

ونواحُ الطيورِ غيرُ عويلِ  
نقلتهُ الطيورُ عن أصغريه

ما ندى الفجرِ غيرُ لؤلؤِ دمعِ  
رشفتهُ الأزهارُ من محجريه

وبريقُ النجومِ غيرُ شظايا  
كأسِ حبِّ تحطمتْ في يديه



النشيد الثالث

العبد

بين روحي ، وبين جسدي الأسيرِ

كان بعد

ذقت مرّة

أنا في الأرض ، وهي فوق الأثيرِ

أنا عبد

وهي حرّة

\*\*\*

أنا عبدُ الحياةِ والموتِ ، أمشي

مُكرهاً من مهودها لقبورِة

عبدُ ما ضمّت الشرائعُ من جورِ

يخطُّ القويُّ كلَّ سطورِة

يراع دمُ الضعيفِ له حبرٌ ،

ونوحُ المظلومِ صوتُ صريره

أنا عبدُ القضاء ، تملأ نفسي

رهبةً من بشيره ونذيره

عبدُ عصرٍ من التمدنِ ، نلهو

ضلةً عن لبابه بقشوره

عبدُ مالي ، أحظى به بعد جهدٍ

فإذا بي أنوء من ثقلِ نيره

عبدُ إسمي ، ذوّبتُ روحي وجسمي

طمعاً في خلوده ونشوره

عبدُ حيي ، أنزلته في فؤادي

فكوى أضاعي بنارِ سميره



أنا في قبضة العبودية العمياء ،

أعمى مسير بفروره

إن جسمي عبدٌ لعقلي ، وعقلي

عبدٌ قلبي ، والقلبُ عبدٌ شعوره

وشعوري عبدٌ لحسي وحسي

هو عبدٌ الجمال ، يحيا بنوره

كلُّ ما بي في الكونِ أعمى ومنقادٌ -

على رنمه لأعمى نظيره

غير روعي فالشعرُ فكَّ جناحها

فطارت في الجوّ فوق نسوره

تتحي عالم الخلود ، لتحيا

حرّة بين روضه وغديره

الشيد الرابع

علم فحقيقة

يا طيورَ السماء في الريحِ رُوحِي

بِي جَرِيًّا

عَلَى الْجَلْدِ

وَبجسِي طيرِي إلى حيثِ رُوحِي

فِيهِ تَمِيًّا

بِلا جَسَدِ

\*\*\*

هو حلمٌ مَجْنَحٌ ، رافقَ الشاعِرَ

يطوي الأجيالَ جيلًا جيلًا

خَلَعَتْ يَقْظَةَ العُقُولِ جَنَاحَيْنِ

عَالِيَهُ يَحْيِرَانِ العُقُولَا



ما هما من خرافةٍ وخيالٍ  
بل هما من حقيقةٍ وهيولي

صعد الطرف في الأثير تجذني  
قاطعاً في الأثير ميلاً فيلاً

خيباً تارة ، وطوراً وثيداً  
صعداً مرةً ، وأخرى نزولاً

فوق طيارةٍ على صهواتِ الريحِ  
راحتُ تروضُ المستحيلاً

هي طيرٌ من الجمادِ كأنَّ  
الجنَّ في صدرها تحتُ خيولاً

حممتُ تضربُ الرياحُ بنعلينها  
فشقتُ إلى السماءِ سبيلاً

ثم مدّت إلى النجوم جناحين  
وجرّت على السحاب ذيولا

غرقت في الأصيل حيناً ، وعامت  
بعد حين تملؤ قليلاً قليلاً

ترتدي من دخانها بردة الليل  
وتلقي عن منكبيها الأصيل

وعليها من الشرار نجوم  
عقدت حول رأسها إكليلاً

حلّتي ، حلّتي ، وألقي على الأفلاك  
رعباً وروعاً وفضولاً

واشهدي في الطيور كراً وفرّاً  
واستعي في النجوم قالا وقيلاً !

التشيد الخامس

بين الطيور



قال نسرٌ لآخرٍ : « أيُّ طيرٍ

هو هذا ؟

ومن رفاقه ؟

إن يكن قادمًا إلينا لخيرٍ

فماذا ؟

علا زعاقه ؟

\*\*\*

يا لهُ طائرًا بصورةِ شيطانٍ

يبثُ اللهبَ بركانٍ صدره

أهو منّا؟ لا لا فلم أرَ جبارا

كهذا في الجوّ ما بين طيره

إِنَّ قَلْبِي لَمَوْجِسٌ مِنْهُ شَرًّا  
رُوحَ بِنَا نَجْتَلِي حَقِيقَةَ أَمْرِهِ «

« آدَمِيُّ هَذَا - أَجَابَ أَخُوهُ -

جَاءَ يَسْتَعْمِرُ الْأَيْثِرَ بِأَسْرِهِ

كَرَّةُ الْأَرْضِ عَنْ مَطَامِعِهِ ضَاقَتْ  
فَخَطَّتْ هُنَا مَطَامِحُ فِكْرِهِ

نَحْنُ لَمْ نَهْجِرِ الْبَسِيطَةَ ، إِلَّا

هَرَبًا مِنْهُ وَاجْتِنَابًا لَشَرِّهِ

قَمُّ بِنَا نَحْشِدِ الطِّيُورَ وَنَنْقُضُ

عَلَيْهِ ، نَجْزِيهِ مِنْ مِثْلِ غَدْرِهِ ! «

رُدِّدَتْ فِي الْأَيْثِرِ صِيحَةُ حَرْبِ

مَلَاتُهُ بِنَسْرِهِ وَبِصَقْرِهِ

هو حشدٌ أثار ضربُ خوافيه

غبارَ السحابِ يعمي بدره

وإذا بي ما بين أجنحةٍ سودٍ

على الأفقِ حجبتُ وجهَ بدره

طوّقتني بكلِّ فاجرٍ شدقٍ

صامدٍ لي بمخليه وظفره

— لا تخافي يا طيرُ ما أنا إلا

شاعرٌ تطربُ الطيورُ لشعره

زارك اليومَ متعباً ينشدُ الراحةَ

في هدأةِ السكونِ وسحره

فرَّ عن أرضه فراركِ عنها

من أذى أهلها وتكليلِ دهره



النشيد السادس

رَفِزْ أَلْم

أنظريه يمسي وفي خطواته

نزوات

من الألم

عائر الجدد، جدّ تحدو بذاته

نزعات

إلى العدم

\*\*\*

غمرة الأحلام بالشفق الوردية

يفريه بالمنى تعليلا

وتلاشت حلماتاً خلماتاً، إلى اللاشيء

تمشي به قليلاً قليلاً

هو في ميعة الشباب ولو حدقت  
فيه أبصرت ، شيخاً هزيلاً

بقوامٍ كأنَّ قاصمةَ الظهر  
أناختْ عليه حملاً ثقيلاً

وجبينِ ألقَتْ عليه شجونُ  
النفْسِ ظلًّا من العبوسِ ظليلاً

فهو لا يعرفُ التَّبَسُّمَ إلاَّ -  
عند ما يستعيدُ حملاً جميلاً

ألف اليأسِ قلبه ، فهوَ واليأسِ  
يحَاكِي بئِنَّةً وجميلاً

وإذا اليأسُ صدَّ عنه قليلاً  
راحَ يبيكي على نواهٍ طويلاً



وإذا ما النسيم مرَّ عليه  
فعليلٌ أتى يعودُ عليلاً

حائر الطرفِ ، شارد الفكرِ يحكي  
مدججاً في الظلامِ ضلَّ السبيلاً

تاه في عالم الخيالِ ، فضاعتْ  
نفسه وهي تنشدُ المستحيلاً

حوَّل الأرضَ عالماً علويّاً  
قاطرًا من وحوَّلها سلسبيلاً

ملأ العالمَ السماويَّ شدواً  
منزلاً منه للورى إنجيلاً

هاك عقدَ النجومِ بين يديه  
صار بعد انفراطه إكليلاً

التشيد السابع

قرب النجوم

وانبرت نجمةً لأخرى تقولُ :

« من يحوم ؟

من البعيد ؟

أهو نجمٌ مذنبٌ أم دخيلٌ

في النجوم ؟

وما يريد ؟

\*\*\*

هو ينقضُّ كالصواعقِ ، منطاداً

إلينا ، والهولُ ملءٌ وشاحه

بين برقي من الشراراتِ ومأضٍ

ورعدٍ ملعلعٍ في صياحه



أنظريه يدنو ويدنو ، فهل غفل  
في جونا بقصد اكتساحه ؟ »

ينطق الخوف كل عي وهذي  
رعشة النجم عجلت بافتضاحه

وإذا نجمة تجيب : « وقلك البعد  
أختي ، شرّ انطلاق جناحه

هو تحت السديم أعجز عن أن  
يبلغ النجم فوق متن رياحه

هو مخلوق عالم اسمه الأرض ،  
يفطبي الشقاء كل بطاحه

عالم ما شماره غير أن الحق  
للقوة التي في سلاحه

لا تخافي منه ، وخليه يعلو  
فقريباً يهوي صريع كفاحه ! »

- إيه يا نجمتي ألم تعرفيني  
شاعراً ينصتُ الدجى لنواحه ؟

كم ليالٍ في الروضِ أحييتها  
أبكي ، وأشكو إليك بين أقاحه

ساكباً في الفؤادِ من طرفك  
السيالِ بالنورِ بلسمًا لجراحه

وسواد الظلامِ في قلبي حبرٌ  
أوشى به . يياض صباحه

سامحَ الله فيك قلباً نسيًا  
هو في السكونِ مثلُ قلبٍ ملاحه

النشيد الثامن

# أوراق مُتَنَازِرة



حِجَّةَ اللَّيْلِ ، رَحْمَةً ، فَضْلَوْعِي

مِنْ شَجْوِي

تَمْرَق

كَفَكَفِي السَّيْلِ ، إِنَّهُ فِي دَمَوْعِي

مِنْ عِيُونِي

يَتَدَفَّقُ

\*\*\*

وَإِذْ كَرَيْتَنِي بَيْنَ الْكُؤَاكِبِ وَادْعِي

لِي ، عَسَى يَهْتَدِي إِلَيَّ السَّلَامُ

عَشْتُ بَيْنَ الْمُتْنَى ، يَرَاوِدُ نَفْسِي

خَابٌ مِنْ طَيُورِهَا وَعَقَامُ

أقتفيها وفي يدي فؤادي ،

ثم أوي وفي يدي حطامُ

أيُّ حلمٍ سبكتُهُ ذهبياً

لم تذبهُ بنارها الأيامُ

ورجاء حبكتُهُ من خيوطِ

النورِ ، لم ينسدلْ عليه ظلامُ ؟

أيُّ عودٍ حملتُهُ للتلهي

لم تقطعُ أوتارَه الآلامُ ؟

ونشيدٍ أوقعتُهُ للتأسي

لم يعكّره بالأنينِ الغرامُ

أيُّ كأسٍ قرّبتُهُ من شفاهي

لم تحل حنظلاً عليه المدامُ ؟

وفؤادٍ ذوّبتُ فيه فؤادي

لم يضعْ عنده لمهدي ذمامُ؟

أيُّ طيفٍ عاتقتهُ في منامي

لم يكلله دمعُ عيني السجّامُ؟

وهنا زرعتهُ في ضلوعي

لم يكن منه للذبول طعامُ؟

ليت شعري ، والليلُ يعقبهُ

الفجرُ، متى يعقبُ البكاءُ ابتسامُ؟

ضاع عمري سعيًا وراء رسومِ

خطّطها في الشاطئِ الأقدامُ

عشتُ أبنِي على الرمالِ وهل يثبتُ

ركنٌ، له الرمالُ دعامُ؟



النشيد التاسع

في عالم الأرواح

وسرى في عوالم الأرواح

من قدومي

شبه همس

إذ تسمن من خفوق جناحي

في السديم

ريح أنس

\*\*\*

فتأبى حول جسمي جماعات

ملآن الجنو الفسيح دويًا

وإذا بي أعي هنالك أشياء

ولما حدقت لم أر شيئًا

فكأنني في الحلم نشوانُ صاح  
تتوالى رؤى الخيالِ عليّ

ما لعيني والنورُ شعَّ بقربي  
لم تميّزْ إلا فراغاً خلياً؟

طوّقتني الأشباحُ، ها هي حامتُ  
ثم أهوتُ ترفاً بين يديّ

ولها كاختلاجِ أجنحةِ النحلِ  
أزيرُ يطنُ في أذنيّ

إنها كاللهاتِ نفحاً ولفحاً  
وكموجِ الشعاعِ نشرًا وطياً

غمرثني بالغميمِ ينضحُ طلاً  
واحتوتني بالريحِ تفسرُ رَيّاً



هي كالوم البستنة خيوطُ  
الفكرِ ثوباً من الخيالِ جلياً

لم يزل صوتها إلى اليومِ في  
أذني ، وأنفاسها على شفتيّ

إنما عند وصفها خاني الفكرِ  
وألقي على بياني عيّا

يا لهُ عالماً هناكَ بعيداً  
قرّبتهُ عروسُ شعري إليّ

فتنبهتُ من ذهولي وأصغيتُ  
لعلّي أجلو هناكَ خفيّاً

فسمعتُ الذي توشوشهُ الأرواحُ  
عني ، وما تفكّر فيّا

النشيد العاشر

# حَفِيَّةُ التَّرَابِ

قال روح: « حذارِ يا أتراي

واطرده

عن السماء

هو في الأرض حفنة من تراب

فأبوه

طين وماء

\*\*\*

هو من نفخة كفت لتجلبه

وتكفي بذاتها لاحتجابه

وكما كان أصله من تراب

الأرض، يغدو مصيره لتراابه



لَيْتَهُ عَادَ لِلثَّرَى مِثْلَمَا جَاءَ

تَقِيًّا بِنَفْسِهِ وَإِهَابَهُ

جاء والحسنُ والرواءُ رفيقاهُ

وثوبُ العفافِ كلُّ ثيابِهِ

وتولَّى يقودهُ الإثمُ والداءُ

إلى القبرِ في ربيعِ شبابهُ

هو يحيا للشرِّ ، فالشرُّ يحيا

أبدًا ، حيث حلَّ شؤمُ ركابهُ

وهو لا ينفعُ البسيطةُ إلا

حين يشوي في القبرِ بين رحابهُ

حين يمتصُّه الثرى فيغذي

منه ما في الأديمِ من أعشابهُ

يا لعمرى كلُّ النباتِ الذي في  
الكونِ من زهره إلى لبّابه

ليس إلا عصيرَ أجسامٍ من  
ماتوا فزانوا الثرى بأجلِ مابه

كندى الفجرِ سالَ فاشتفهُ التربُّ  
فالت وحلاً لآلي حبابه

بخرته ذكاءً فاسترجعته  
صافياً للأثيرِ عينُ سحابه

فهو بين السحابِ ثانيةً قطرُ  
نقى يحيى الثرى بانسكابه

تلك حالُ الإنسانِ حياً وميتاً  
رُبَّ خيرٍ أشرُّ من أسبابه

النشيد الحادي عشر

رتقي كاذب



قال ما قاله ، وفرَّ لفرده

يتوقى

تقربى

فإذا آخر يقول بدوره :

« قلت حقاً

بمدهى

\*\*\*

أنا عن وصف شرِّه عاجز

والله ، مهما أفضتُ في تبيانه

ما دعوهُ الإنسان من أنسه

لكن دعوهُ الإنسان من نسيانه

نسي الخير حين أوغل في الشر  
فداس الضمير في عصيانه

ملأت قلبه الأفاعي فلا يسمع  
غير الفحيح في خفقانه

حسد ناهش بقيّة ما في  
نفسه من إباه وحنانه

طمع يقذف اللهب حوالبه  
فيعمي عيونته بدخانته

وأنايته تحل له القتل  
لتحقيق غاية في كيانه

أعطي النطق والحجى ميزة  
تفرقه في الوجود عن حيوانته

فإذا بالأذى وليدُ حجاجه

وإذا بالشروع بنتُ لسانه

عاش في أرضه فحالت جحيماً

فأتى الخلد عائثاً في جنانه

زجّ بالعلم في الفضاء طيوراً

من جمادٍ ، يديرها بينانه

ما بناها إلا لهدم المباني

ولسفك الدماء في طيرانه

ليتهُ لم يكن ذكياً فكلُّ

الويل في الكون من نهى إنسانه

ليت عمرانه تأخر أجيالاً

فكلُّ الخراب في عمرانه «



النشيد الثاني عشر

كفارة الشاعر

وتجلت روح على القرب مني

رمقتني

بلا غضب

خاتما أقبلت تدافع عني

صح ظني

ولا عجب

\*\*\*

هي روعي جاءت تخلصني من

غضب العالم الفخور بشمسه

طوقتني بكل عطف وصاحت :

« أخواتي رفقاً به وببؤسه »

هو بالرغم عنه من عالم الأرض  
نزياً بشكل أبناء جنسه

سكن الأرض مرغماً وهو لو  
خَيْرٌ، ما اختار غير ظلمة رمسية

إنَّ بين السريرِ والنعشِ خطواتٍ  
دعواها الوجودَ وهي بعكسية

عمره ليس غيرَ قطرةِ حبرٍ  
ومضت من يراعِهِ فوق طرسية

يتلاشى كالشمع - كي يعطي النور -  
علي هيكلي الخلودِ وقُدسية

غده مثلُ يومِهِ تلعبُ الأقدارُ  
فيه ، ويومُهُ مثلُ أمسيهِ



غسلت عينه ، بما سكبته  
من ندى الدمع ، كل أدران نفسه

والتظى قلبه فطهر ، بالآلام  
ما دنسته شهوة حسنة

جاء من أرضه يفتش عني  
بأساً فاخشعوا احتراماً لياسه

ودعوه معي في قبلائي  
شهد عطف ينسيه علقم كأسه

.....

\*

.....

---

\* حين دفع الشاعر كتابه للقطعة الجديدة أضاف إلى كل نشيد من الأناشيد السابقة بيتين ، وحالت وفاته دون متابعة الزيادة في كل من الأناشيد الثلاثة الأخيرة .

التشيد الثالث عشر

على بساط الرزق

ووقفنا معاً بقلبِ السماءِ

تتملى

من القمّلِ

ما أحبّ اللقاءَ بعدَ التناهي

فيهِ أحلى

من الأملِ

\*\*\*

موقفٌ لا يمثّلُ الفكرُ أبهى

منه ، في نومِهِ وفي يقظَاتِهِ

إذ جلسنا على بساطٍ من الشَّحْبِ ،

يفوحُ الغرامُ من جنبَاتِهِ



تحت جَوْ كَأَنَّهُ سِنَّةُ النُّومِ ،  
تَرْفُ الأَحْلَامُ فِي طَبَقَاتِهِ

وَالنَّسِيمُ العَلِيلُ فَوْقَ لُظَى  
أَنْفَاسِنَا ، سَاكِبٌ نَدَى نَفْسَاتِهِ

وَعَذَارَى الأَرْوَاحِ تَنْشُدُ مِنْ بَعْدِ  
بِصَوْتِ ، اللهُ فِي نَهْرَاتِهِ

رَاقِظَتُهُ قِيثَارَةُ الحَبِّ فَانسلَّ  
أَنْبِيءُ الأَوْتَارِ فِي نَعْمَاتِهِ

فَانتَقَلْنَا إِلَى فِضَاءٍ مِنَ البَحْرَانِ ،  
هَارُوتُ فِيهِ بَعْضُ حِمَاتِهِ

وَمَلَأْنَا مِنْ لَفْجِ قُبْلَاتِنَا الجُوءَ ،  
فَعَادَتِ بِالنَّفْحِ مِنْ قِبْلَاتِهِ

ثم قننا نجيلُ في الكونِ ، أبصاراً  
أرتنا منه حقيقةَ ذاتهُ

ننظرُ الناسَ من علٍ مثاماً ننظرُ

تغلاً يمشي إلى غزواتهُ

ونرى الطودَ في السهولِ ، كما تبصرُ

فوق الترابِ ظلَّ حصاتهُ

ونرى الموجَ في الخضمِّ ، كما تلمحُ

جواً ، والشعبُ في مرآتهُ

.....

.....

.....

.....

النشيد الرابع عشر

على الأرض



نلك بضع من الدقائق مرّت

في خضمّ

من الخلود

هي مثل الأحلام زارت وفرت

أي حلم

ترى يعود؟

\*\*\*

وإذا بي أهوي إلى الأرض وحدي

بعد حرّيتي أكابدُ رقاً

تركنتي روحي وعادت لماوأها ،

تشقّ الشعاع في الجوّ شقاً

فرايتُ اليراعَ قربي يؤاسيني  
ويبكي لما لقيتُ وألقى

يا يراعي ما زلتَ خيرَ صديقٍ  
لي - منذُ امتزجتَ بي - وستبقى

باسمًا من سعادتي حين أهنا  
باكياً من تعاستي حين أشقى

كم حبيبٍ سلا وعهدكُ باقٍ  
فهو أوفى من كل عهدٍ وأبقى

أنت رغم الجحودِ خلٌّ وفيٌّ  
حوّل المستحيل غولاً\* وعنتقا...

زُبَّ دمعٍ كفكفتُهُ من عيوني  
سالَ حبراً في الطرسِ يخفقُ خفقاً

\* إشارة إلى القول المعروف إن المسجّل ثلاثة : القول والعناء والحل الوفي ، فكأن  
(المعلوف) يقول : « إنك يا قلبي تخرج من حكم هذه الثلاثة لأنّي عرفت فيك الحل الوفي » !

وعذابٍ نزعته من ضلوعي  
أجّ بين السطورِ يحرقُ حرّقا

وزفيرِ حوّلة — لصريرِ  
ملاً الخافقين غرباً وشرقاً

يا يراعي رافقت كل حياتي  
فارو عني ما كان حقاً وصدقا

أنا لم ألقَ مثلَ صمتك صمتا  
حوّلتُهُ عرائسُ الشعرِ نطقا !!

.....

.....

.....

.....









Elmer Holmes  
Bobst Library

New York  
University



NYU - BOBST



31142 01706 5841

PJ7846.A537 Z53 1948

Sha'ir al